فنادَى فِي الظُّلُمَاتِ

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

اسم الرواية: فنادَى فِي الظُّلُمَات

اسم المؤلف: أحمد فرغل

التدقيق اللغوي: محمود البكري

تصميم الغلاف: أحمد هيكل

الإخراج الداخلي: خالد محمود

رقم الإيداع: ٢٥٦٩٨ / ٢٠٢٢

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٦٤١٠-٥-٩

مسار للنشر و التوزيع

ش- حسن خطاب - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية

01020439639

massar.pub1@gmail.com

فنادَى فِي الظُّلُمَات

"لا يرد القدر إلا الدعاء"

أحمد فرغل

مسار
للنشر و التوزيع
Masar publishing & Distribution

إِهْدَاء

"لكل من رفع يده إِلى ربه وظنّ أنّ الله لم يستجب له، ولكل من علق قلبه بأُمنية وحُرم منها، ولمن تعثّرت به السبل، وضلّت به الطرق، وتخلّت عنه الأسباب، وضاقت عليه الأرضُ بما رحبت، وظنّ أن لا ملجأ من اللَّه إِلّا إِليه.."

وإذا رفعت يدك للإِله مُناجيًا   ودعوت ربك أن يُحـــــــقق مطلبكَ

فَــأخــر اللَّه عنـك سُـــؤالكَ   فظننت أن الحـــقّ قد خيّب أملك

فــاصــبر لأقـــدارِ الإِلـــهِ   فغدًا يُرضيكَ ربي من عظيم عطـائهِ

ولا تقل منع عنّي ربّي دعوة   فلربما كـــــان العـــــطاء في منعهِ

* أما بعد *

لقد مررت بالكثير من الصّعاب في حياتي، ضاق بها صدري وانكسر حينها خاطري، اِنهارت من حولي جميع الأسباب، ولقد كنت وحيدًا رغم كل ما حولي من زحام، ولا أُبالغ إن قلت ساعتها إن الهواء من حولي قد خلا من الأوكسجين.

فها أنت الآن وحيدًا كما كنت أنا، مطاردًا من أوجاعك، أسيرًا لهمومك، تُفتش في رُوحك فلا ترى إلا ألما.

اِمتلأ عقلك بالوساوس حتى أنك تخاف أن تُغلق أبواب غُرفتك حتى لا تقتلك أحزانك، تُخبئ خلف اِبتسامتك جُروحًا غائرة، وأحزان كفيلة بأن تُحول العالم إِلى مأتم.

فها أنا أُربت على كتفك بيدي، وأقول لك اِهدأ ولا تخف، فما هو إلا اِبتلاء أراد به الله أن يُطهر قلبك المكلوم، ويشف به جُروح صدرك الممتلئ حُزنًا، ويسد عنك ثُقوب سدك الذي يحجز عنك هُمومًا كفيلة بإغراقك.

صدقني إن قلت لك إنك فقط تحتاج إِلى كتفٍ تستند عليه حتى

تنجو من تلك المعركة، من يمسك بيدك ليُواسيك بكلماته، ويساندك بنصائحه، فربّ كلمة كفيلة بأن تُصلح ما أفسدته الأيام، وتُضمد الجروح التي لا يشفيها دواء، ولا يُعالجها طبيب، وليداوي بيده تلك الجُروح التي لا يراها النّاس، فأصعب الجروح جروح القلب.

ربما الآن تُحاول جاهدًا العثور على شخص يأخذ بيدك لينتشلك من بحر أحزانك قبل أن تغرق، أو من يُدلي لكً بدلوه قبل أن تزل قدمك فتسقط.

تبحث في سجلات هاتفك فلا تعثر على من يتحمل سيلان الدموع من عينيك أو من يستمع لشكواك.

تُدرك حينها أننا لا نُشفى إلا بالله.

ولا يوجد من يقتلعنا من وسط تلك الكُروب إلا الله.

فما أن انتهيت من البحث إلا وأطفأت هاتفك، وأسرعت برفع يدك إِلى ربك في اِنتظار أن تُصلح بالدُعاء ما أفسدته الحياة.

فما إن أرخيت يدك وأخذت تعد الدقائق في اِنتظار إجابة دعوتك.

مرت دقائق، ساعات، أيام، والنتيجة لم يستجب الله لما دعوتَ!

لعلك الآن أصابك بعضا من خيبة الأمل، وظننت أنك أخطأت

الوجهة،

فأقول لك لست وحدك من ظنّ أن أمله قد خاب، كنت محاصرًا مثلك دائما بسؤالٍ واحدٍ لماذا لم يستجب اللَّه لي؟

لقد كنت في أَشد الاحتياج إِلى إِجابة دعوتي، فكم من ليلةٍ نمتُ وقد امتلأت عيني بالدموع لأني عجزت عن أَمرٍ وحينما رفعتُ يدي بالدعاء لم أَجد ما أنتظره!

لقد كنت أظن أني إِذا دعوت اللَّه عز وجل في محنتي، فجاءة ستتحول المحنة إِلى ما أُريده.

وكم دعوتُ حينما فقدت شيئا أن يُعيده اللَّه لي ولم يعد!

لقد كُنت هُناك في نفس الصحراء التي أنت فيها الآن، تائهًا يملأُ رأسي سؤال واحد متى سيستجيب اللَّهُ لي؟

أتعرف في تلك اللحظات أنت تُدرك تمامًا أَنك تحتاج إِلى شخص يُمسك بقلبك لا بيدك، ويريك ما تعجز أنت عن رؤيته أَو ما تُحاول أن تغفل عنه، أن اللَّه قد اِستجاب لك، ولكنهُ يعطيك ما تحتاج لا ما تطلب.

فربما منعك ليعطيك، وربما منعك ليحميك، وربما منعك ليرضيك.

فأحياناً يكون المنع هو عين الجواب، وأحياناً يكُون تأخير الفرج هو قمة الفرج، الإنسان لا يفهم الأقدار، ولا يفهم حكمة اللَّه في كونه فقد خُلق من عجلٍ، دائمًا يبحث عن الأسباب، لماذا فعل اللَّه معي كذا؟ ولماذا أخذ مني كذا؟

دعني أُخبرك بأمر مُنذ وقتٍ ليس بالبعيد مررت بأصعب أيام حياتي عامًا كان هو الأَصعب على قلبي، حتى أني فقدت فيه الكثير، ومع لحظات الاِنهزام والاِنكسار، أخذت أسأل نفسي ما العمل؟

لقد نفدت مني حيلي، إِلى أن أمسك بيدي شخص وكأنه يعطيني الدواء لكل هذا التعب الذي مررتُ به قائلاً لماذا لا تدعو اللَّه؟

فقلت في نفسي ما الجديد، أتظن أنه غاب عني فما من ليلة ولا صلاة إِلا ودعوتُ اللَّه بها ولكن لا فائدة! فلم يستجب لي.

وإِذ به يبتسم قائلاً "ومن قال إنه لم يستجب لك، لقد اِستجاب لك ولكنّه أبعد عنك شر دعوتك، أو ربما هو يحب إِلحاحك فأخر دعوتك حتى تلجأ إِليه فلا تيأس".

وقعت كلماته على قلبي كوقع المطر على أرضٍ لم يصبها الماء منذ سنواتٍ بها حُبوب تشتاق لأن تنبت.

فقلت لنفسي نعم!

ربما اِستجاب، ربما في غيب اللَّه قد تحققت أُمنيتي، ولكن بعد لحظات عادت الأسئلة من جديد فكيف لعقلي أن يتركني في هدوء دُون أن يُؤرق عليّ لحظات الرّاحة التي شعرت بها، إِذ كيف ستتحقق دعوتي وكل الأمور أمامي تقول مستحيل، وكل الأبواب قد أُغلقت؟

فابتسم قائلاً " لا مستحيل مع اللَّه، ولا باب يُغلق أمام قُدرة اللَّه، عليك فقط ألا تيأس، ولا تملّ من التّجديف حتى تصل إِلى شاطئ النّجاة، وتذكر نبيّ اللَّه زكريّا لم يفقد الأمل على الرغم من اِنهيار الأسباب، فقد وهن عظمه، وانحنى ظهره، لكنّه كان يعلم أنه إن كانت صعبة عليه فهي على الله هينة.

* المجيب *

دائمًا حينما يُذكر الدعاء، تجد نفسك تتطلع إِلى اِسم اللَّه المجيب، الِاسم المطمئن لعباده، أن لهم إِلهًا يرفعون أيديهم إِليه.

فكم من مرةٍ ظننتُ أنه لن يستجيب لدعائي، ورغم ذلك أجد نفسي أتذكر هذا الِاسم وكأنها رسالة من اللَّه، وهاتف يهمسُ في أُذني يقول لي سيستجيب.

لقد جعل اللَّه الإِجابة جزءًا من اِسم من أسمائه، أتظن أن هذا بلا سبب، أن يزرع في قلوبنا الطّمأنينة بأن دعاءنا سيستجاب.

نحن نحتاج إِلى أن نُزيل تلك الشُّكوك من قلوبنا، والأسئلة التي تبعث التردد في نفوسنا، وتمنعنا من رفع أيدينا إِلى اللَّه بحجة أنه لن يستجيب.

فإِن لِلَّه عبادًا أخلصوا دُعاءهم لِلَّه، ونزعوا كل شكّ في اِستجابة الدعاء؛ فوصلوا لدرجة أَن منهم من لو أقسم على اللَّهِ لأبره اللَّه.

فقد ذكر الإِمام البخاري أن النّبي ﷺ قال: "إِنَّ من عباد اللَّه من لو

أَقسم على اللَّه لأبرّه".

وتذكر الدُّعاء ليس فيه غني أو فقير، فربما كان فقير رثّ الملابس، بسيط الحال، ودُعائه عند اللَّهِ لا يرد، روى الإِمام مسلم عن أبي هريرة رضي اللَّهُ عنه عن النّبي ﷺ أنه قال "ربّ أشعث مدفوعٍ بالأبواب لو أقسم على اللَّهِ لأبرّه ".

فكم هو جميل أن تشعر أن هناك من يستمع لدعائك، لا يحتاج منك أن تُحدد موعدًا سابقا قبل أن تتحدث إِليه، ولن يقول لك إنّي مشغول عليك بالاتّصال بي في وقتٍ آخر وله سبحانه المثل الأعلى، والأغرب أَنه سيظلُّ يستمع لك حتى تمل أنت، هو لا يملّ من دعائك، لا يملّ من سماع صوتك، لا يملّ من لقائك.

قال النبي ﷺ " عليكُم بِما تُطيقون فواللَّه لا يملُّ اللَّه حتَّى تَملُّوا ".

حِينما يأتي في ذهني اسم اللَّه المجيب أجد نفسي دون أي سيطرة مني على عقلي، أُفكر أنه من المستحيل أن يزرع اللَّه بداخلنا أَملاً وثقة في حُدوث أمرٍ ما ويحرمنا منه، فما زرع بداخلك أَملاً إِلا سبحانه وتعالى سيحقّقه لك.

لذلك كان اِسم الله المجيب هو مواساتي حينما كُنت أجلس وحيدًا، أُخاطب نفسي، وأُواسي قلبي، وأُعزّي فؤادي، أُربت على كتفي بيدي

وأقول لا تقلق يا فتى فلربما يرتب اللَّه لك ما تتمناه، وربما في غيب ربك قد أُجيبت دعوتك، فلن تضيع دعوة هتفت بها، ولا حاجةً كُنت تُلح بها ليلاً ونهارًا، فربك أَرحم من أَن يكسر خاطر عبده.

لذلك لا تقلق فلم يُضيع اللهُ دُعاءك في ليلة عجزت فيها أسبابك، وقلّت فيها حيلتك، وقُمت وتوضّأت وأطفأت أنوار غُرفتك، ورفعت بصرك وكفك إِلى السَّماء وقلت يا رب.

أتظن أنه يضيع دعوتك؟

لا واللَّه بل قد اِستجاب لك، ولكن ربما هناك أمور تحتاج إِلى بعض الوقت لتحدُّث، ظل يُوسف في سجنه لسنواتٍ، كان اللهُ قادرًا على أن يخرجه من سجنه بعد دُخوله ربما بأيام، ولو قلنا ساعات فاللَّه قادر.

ولكن أخّر اللَّه خُروج يُوسف من سجنه، لأنهُ كان يُعد لما هو أعظم، فما أَخرجه إِلَّا ليكون عزيزا لمصر.

وأخّر اللَّه لقاء يعقُوب بيوسف، رغم أنهُ كان يُلح على اللَّهِ في دعائه، يبكي ويحزن حتى ابيضت عيناهُ، ولكن حينما أراد اللهُ عزَّ وجل تحقيق دعوة يعقُوب فتح اللَّه باب الإِجابة على مصراعيه، وكأنّ دعوة يعقُوب كانت كطارقٍ على أَبواب فرجٍ قد آن لها أن تفتح، فرد له اللهُ بصرهُ، وحقّق ليوسُفَ رُؤيته، وجمع اللَّه بينهُما بعد سنواتٍ من الفراق.

* القدير *

كم من مرةٍ أُغلق في وجهك بابا؟

وكم من مرةٍ عجزتَ عن أمرٍ ضعفت أمامه قوتك وقلت أين المفر؟

وكم من مرة أُصبت بالخيبة والانكسار لأن قدرتك لا تقوى على تحقيق ما تريده؟

فما كان منك إلا أن رفعت يدك لمن يملك قوةً لا تملكُها وقُدرة لا حُدود لها فلا قانون يحكمها، ولا منطقا يحركُها.

اسمُ اللَّه القدير:

الاسم الذي يأتي بمثابة يد تُوضع على قلبك، وهاتفا يهمسُ في أُذنك.

يد تطمئنك، ربما لا تستطيع أن تراها بِمُقلتيك، ولكن تستشعر وُجودها حينما تربّتُ على كتفِك، وتمسح على قبلك.

وهاتف يهمس بصوتٍ خافت، ضعيف النّبرة لا يُمكن لأحد ممن حولك أن يسمعه، لكن أنت تُدرك كل حرفٍ ينطقُ به وهو يقول لك لا تقلق فاللَّهُ قادر.

فكم من مريضٍ شُفي بقول يا رب.

وكم من أعمى رد إِليه بصرهُ بقول يا رب.

وكم من غائبٍ عاد حينما رفعت الأيدي بقول يا رب.

فلا مُستحيل مع اسم اللهِ القدير.

لا يعجزه دعاء، ولا يغلق أمام قدرته باب.

فكلما حسبت أن أسبابك قد ضاقت عليك، ولسان حالك يقول لك إنه لمن المستحيل أن تتحقق دعواتك،

ضع يدك على قلبك وقل: ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ﴾، قل لقلبك إنّ اللهَ قادر على أن يُحيي العظام وهي رميم، هل أمنيتي ودعوتي أصعب من إحياءِ الموتى؟

هل دعوتي أصعب من خلقِ سبع سماوات وسبع أراضين؟

هل دعوتي أصعب من خلقِ كون شاسع لا تُدرك اِتّساعه الأبصار؟

القدير: مع وقع هذا الاسم على مسامعي أتيقن أنهُ لا يوجد حلم ولا أمنية تقف أمام قُدرة اللهِ.

فلقد كانت دائماً مشكلتي في الأَسباب والعوائق التي تقف أمام قُدرتي المحدودة، وقُوتي التي مهما زادت فلها قانون يحكمها، فحينما

نُفكر في دعوةٍ تشغلنا نستحضر دائمًا الأسباب، ونقول كيف سيحدث هذا الأمر وكل ما حولي يقول لي مستحيل؟

تذهب لطبيبٍ يقول لك لن تُنجب،

وتذهب إلى مُقابلة عمل وأنت مُتيقن أنه من المستحيل أن تُقبل،

ويضيق بك الحال من مالٍ وتظن أنها لن تتسع،

وتُظلم وتظن أنك لن تُنصر،

فجأة يتحول المستحيل إلى ممكن، وما كُنت تقول في نفسك لن يحدث أصبح أمر واقع،كل ذلك حينما نرفع أيدينا للقدير سُبحانه، فبالدعاء شُفي أيُّوب، ونُجّي يونُس، ورُزق زكريًّا ابنا نبيّا.

فأنا دائما على ثقةٍ تامّةٍ في قدرة اللَّهِ، أُدرك أنهُ لن ينسى نصيبي من الفرج، أبني بيني وبين اليأس سورًا من الأمل وجدارًا من اليقين.

ولذلك كانت مواساتي لنفسي دائما عن كل دعوةٍ تأخرت وكل نداءٍ لم يُستجب بعد كنت أقول لنفسي: ﴿لَا تَدرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحدِثُ بَعدَ ذَٰلِكَ أَمرا﴾، فلا تدري كيف يُغير اللَّه الأحوال، ويقلب اللَّه الموازين من أجل دعوتك، فمن يعلم انتكاساتي وانكساراتي وحزني غير ربي.

أُدرك أن قلبي لن يهون عليه، سيجبر لي كسرى، وسيداوي لي

خاطري، وأنا على يقين تام أن بعد تلك الأيام الشّدائد ستُمطر سمائي فرجًا، فصبرًا وكُن على يقين إن نسيت أنت حاجتك فإِنّ اللَّه لا ينسى.

* السميع *

من منّا لم يقع في أزمةٍ مرت عليه جعلت دنياه سجنًا أشد من سجن يُوسف، وغمًّا أشد من غم يُونس.

وكم من متعبٍ احتاج لشخصٍ يجلس إليه يشكو ما به من تعبٍ وكيف أرهقته الحياة ولم يجد!

وأنت أيضا هل وجدت نفسك وحيدًا في هذا العالم دون رفيق بجوارك؟

يستمع إليك ويقول لك ما بك أنا أُنصت إليك، الجميع لديه ما يشغله، إن أنصت إليك اليوم ربما لا يُنصت لك غدًا.

فإن قلتُ لك إن هناك من يستمع لك دون وقت، وينصت لشكواك دون موعد، بل ويعطيك ما تطلب، فأنت تسأل وهُو يُجيب، فأرى في عينيك نظرة اندهاش وكأنك تتساءل بلهفة من؟ من؟

فأقُول لك إنّه السميع سُبحانه.

فجميل أن تشعر أن شكواك سيستمع لها وأن دُعاءك سيستجاب

له، ليلًا كان أو نهارًا فاللَّه لم يختر وقتًا عن وقتٍ، ولم يجعل لعباده موعدًا لدعائه ولا وقتًا للوقوف بين يديه.

ولكن دعني أُخبرك سرًا، فهناك وقت يُسمى بالوقت المعجزة، ساعات قليلة من الليل ولكن أقل ما يقال عنها إنها ساعاتٌ من الجنَّة، فيها يستجيب اللهُ الدُّعاء.

قال النبي ﷺ:" ينزل رَبنا إِلى سماء الدُّنيَا كُل لَيلَة، حِين يَبقى ثُلث اللَّيل الآخر، فينادي، فَيقُول: من يَدعُوني فأستجيب لَه؟ من يسألني فَأعطيه؟ من يستغفرني فَأغفر له؟".

تخيل ساعات قليلة قبل الفجر كفيلة بأن تُغير مجرى حياتك، الدُّعاء فيها لا يضيع، والسُّؤال فيها مُستجاب، والاستغفار فيها باب لمغفرة اللَّه.

فثَمّة اِبتلاءات لا يهزمها إِلَّا قيام اللَّيل، ولا يغلبها إِلَّا الدُّعاء.

فرمّم هشاشة قلبك بركعاتٍ في اللَّيل، تُصلح بها ما أفسدته الأيام.

فسلامًا على من جعلوا الصَّلاة بُوصلتهم لاستجابة دعواتهم، ولم تقع أقدامهم في بحر اليأس، وأدركوا أن خسارة جولة لا تعني خسارة المعركة، فحاشا أن تُهزم في معركة كان اللَّه فيها بجوارك.

فإني قريب *

هل صادفت يومًا ذهبت فيه إلى المسجد في يوم جُمعة فوجدت الخطيب يتحدث عن الدُّعاء، وأول ما يبدأ حديثه تجده يقول:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ .

ربما الآن تُشاهد التّلفاز فوجدت على إحدى الفضائيّات شيخًا يتحدّث عن الدُّعاء وأول آية يذكرها كانت هذه الآية.

كنت دائما أسأل نفسي لماذا تلك الآية هي التي يذكرها لنا أي شخص يُحدثنا عن الدُّعاء؟ وكأنَّه لم ينزل في القُرآن للدُّعاء إلا تلك الآية.

حتى أني كنت قد تعودت أن أكتب بعض الرَّسائل، لا لأرسلها لأحد ما، بل كنت أبعثها لنفسي، فقلت في إحداها: "السَّلام عليكم من مُنكسرٍ ضلّت به الطُّرق، ومريض يشتاق ليد طبيب تداويه، أمّا بعد فسلامٌ اللَّه على نفسٍ تعبت من الإخفاق، وملّت من الهموم، لم تجد من يُضمّد لها جراحها، ولا من يداوي لها نزيف قلبها، أعتذر عن إهمال أتعبكِ وعن كسرٍ أرهقكِ، جئتكِ اليوم بدواءٍ من كتاب اللَّه، وبآية

لَا يُضام من أحتمى بها، فقط رددي: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴾. والسَّلام،،،

آية اِقتلعت العنصرية من جُذورها، واجتثت كل أساسٍ للتفرقة بين أجزاء المجتمع، الجميع تحت رايتها سواسية كأسنان المشطٍ، فلم يختر اللَّه فيها غنيًا على فقيرٍ، ولا صالحًا على مُذنبٍ، ولا عبدًا على حرٍ، فباب اللَّه أمام الجميع مفتُوح.

بها زرع اللَّه الأمل في قُلوب المنهكين من متاعب الحياة، وأنار لهم بها دروبًا مُظلمة، وأنفاقًا مُعتمة، فاذهب له بها، وارتمي بها على بابه، قل يا رب أخذ الأرق من جسدي مبلغه، وابتلع الهمّ من قلبي أغلبه، لبّيك ربي وإِن كنت عاصيا، لبّيك ربي وإِن كنت مُقصرا، لبّيك ربي قلبا عصف به البلاء، وزاد عليه الشّقاء، السعيد من لجأ إِليك، والهالك من ابتعد عنك، تولّ سبحانك جميع الكُسور، واشف سُبحانك جميع الهُموم، أسألك قلبا سليما وإِن كنت لا أَستحق، وجسَّدًا مُعافًا وإِن كُنت غير جدير.

تلك الرّسالة الإلهيَّة التي تُخبرك أنه إِن تخلّى عنك الجميع وخذلك أقرب النَّاس إِليك، فلا تقلق فاللَّه بجوارك، أقرب إِليك من أي شخص أب كان أو أُمًّا أو زوجة وحتّى أقرب إِليك من أَبنائك، اللَّه أقرب من

الجميع.

هو أقرب إليك منك، أقرب حتّى من قلبك، قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعلَمُ مَا تُوَسوِسُ بِهِ نَفسُهُ وَنَحنُ أَقرَبُ إِلَيهِ مِن حَبلِ ٱلوَرِيدِ ﴾ .

آية هي العنوان على باب يُسمّى الدُّعاء، ومفتاح الوصول إلى كل أمرٍ عجزت أمامه الحُلول، هي معجزة الله التي جاءت كطوق نجاة لشخصٍ أوشك على الغرق، والترياق لمريض عجز أمام مرضه الأطباء، والعكاز لكل مخذولٍ، والكتف لمن خارت قوته.

فبعد قراءتها لن تشعر بضعفٍ، ولن يهزمك خذلان، ولن يكسرك ابتلاء.

لذلك فأنا دائمًا أتذكر تلك اللَّيلة التي حاولت فيها جاهدًا النوم ولم أستطع، وقمت إلى نافذة غرفتي لأرى هل هُناك من لم يستطع النّوم مثلي؟

جلستُ لساعاتٍ أُحدق للسّماء، كنت ممتلئًا بالشكوى، أحتاج إلى شخص يستمع إلي، كنت أستشعر أنّ قلبي يُخلع من صدري، أدركت حينهاً أنّ عكازي في دنياي هو دعائي، فأسرعت على الفور إلى الوُضوء ولم أُطل القراءة فقد كنت أشتاق إلى أن أخر ساجدًا.

فما أن سجدت إلا وأخذت الدموع تنسكب مني منهمرة وكأن عيني تشتاق للبكاء، لقد كنت مُتلذّذا ببكائي، وكأن دموعي تغسل قلبي لا وجهي، شعرت كأنّ الأرض تحتضنني، وكأنها تقول لي لا عليك، ابكِ كما تشاء فأنت مني وإلي، ولا تخف من إِظهار ضعفك أمام ربك.

تعجبت حينها كيف تخلّت عنّي تلك الكلمات التي كانت تملأ رأسي مُنذ بِضع دقائق ألم أَكُن أُريد التحدث؟

ألم أَكُن أُريد الشكوى؟

ما إن سجدت حتّى شعرت أنّي فارغ من أفكاري، ولقد هدأت كل الضَّوضاء التي كانت في عقلي، والرُّكن المظلم في قلبي بدأ يُنير من جديد.

علمت ساعاتها أنّ هناك أدوية لا تُباع في الصَّيدليّات، وبعض الأمراض تُشفى بعيدًا عن عيادات الأطبّاء.

فلن يستطيع أحد أن يتغلغل إِلى دُروب قلبك، ويزيل منه تلك النُّدوب السَّوداء سوى ربّك، فهناك دائما مناطق في القلب، لا يُمكن لأحد الوُصول إِليها تُحاول جاهدًا إِخفاءها، وتمنع نفسك من النظر إِليها مُحدث حظر تجول على العقل بجوارها.

يستوطن بها كل خذلان، وكل كسرٍ، وكل تخلّ وإفلاتٍ في مُنتصف

الطريق، لا تكاد تخلُو بنفسك حتّى تُظهرها بكل تفاصيلها وتزيل حظر التّجول عن عقلك وتقول له أمعن وتوغّل في كلّ تفصيلة بداخل قلبي.

أدركت في ليلتي تلك أنّ كل إجاباتي تكمن في مكانٍ واحد عند ربّي، فجعلت من الدُّعاء مطيتي، وانطلقت نحو بابه، وأسرعت لقراءة تلك الآية التي وعدني الله فيها بالجواب، وأخذت أتلُوها مرارًا وتكرارًا.

فما شعرت بالطُّمأنينة ولا بالرّاحة كما شعرت في حمى هذه الآية ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾.

ولكي أكون صادقا معك لا أذكر آخر مرّة سألت نفسي هذا السُّؤال، منذ متى صرت هكذا؟ فارغ المحتوى لا كلمات تملأ أسطر حياتك، ومنذ متى تلك الهالات السّوداء تحت عينيك؟

ستدرك أن نظرة إلى المرآة كفيلة أن تفضح كل الأحزان التي تكمن في قلبك، مهما ادعيت القوة ستفضحك عيناك، ومهما تظاهرت بالصلابة ستفشي سرك هالاتك السوداء.

فانهض يا فتى ولا تكف عن السعي مهما تعثرت، قف حتى ولو كنت مدمى القدمين، أركض حتى وإن كُسرت عظامك.

واثبت فالبحار الماهر ليس من يسقط عندما تثقب سفينته، بل من يواصل الإبحار حتى يصل بطاقمه لبر النجاة، والقائد المظفر هو من

يظل يقاتل بسيفه ولا يولى هاربًا حتى ولو كان آخر فرد في جيشه، ولا يرفع رايته البيضاء إلا حينما تغادر روحه الحياة.

ستقول لي ما أسهل الكلام، وما أبسط الجمل التي تسردها، فأنت لا تُقدر ما مررت به من عقبات، أو ما عانيته من هزائم، فقد كُسرت حتى لم يعد عندي أمل في الجبر، وصبرت حتى أظن أنه قد نفذ مخزوني من الصبر.

فأقول لك لا عليك، تحامل على نفسك، عانقها بدعائك، ربت على كتفك بتلك الآية ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ ، فوالله لن تجد عزاء لقلبك أجمل من القران.

* ولعبدي ما سأل *

هل جلست مرة وأمسكت كتاب اللَّهِ عزَّ وجلَّ فلَا تكاد تفتح أول صفحات القُرآن إِلا وتجد ترحيبًا جميلًا بفاتحة الكتاب.

السورة التي وضعت لتعلمنا الدُعاء فاللَّهُ اِختار لنا فيها من الكلمات ما تغنيك عن ألف كلمة، جعلها اللَّهُ عزَّ وجلَّ مفتاحًا للصَّلاة وكأن الصَّلاة باب مُغلق لا يفتحُ إِلَّا بدعاء سُورة الفاتحة.

وهل فكرت لما جعلنا اللَّهُ نقرأ الفاتحة في الفريضة سبع عشرة مرة في اليوم، فما تفتتح صلاة إِلا وتحمد اللَّه، وكأنك تقُول لربك أنا على ما أصابني راضٍ، وعلى ما كتبت عليّ شاكر، حامد لك على نعمك، وشاكر لك على فضلك، وراضٍ بقضائك، وكأن العبد يُخاطب فيها ربّه.

فعن أبى هُريرة رضي اللهَ عنهُ قال سَمعتُ رسُول اللَّهِ ﷺ يقول:" قال اللَّهُ تَعالى: قسمتُ الصَّلاةَ بيني وبين عَبدي نصفين ولعبدي ما سَأل فَإذا قال العبدُ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، قَال اللَّهُ تَعالَى: حَمدني عَبدي وَإذا قال: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ قال اللَّهُ تعالى: أَثنى عَلَيّ عَبدي وَإذا قال: ﴿ مَٰلِكِ يَومِ ٱلدِّينِ ﴾ قالَ: مجَّدني عَبدي وقال مرَّةً: فَوَّض إِلي عَبدي

فإذا قال: ﴿ إِيَّاكَ نَعبُدُ وَإِيَّاكَ نَستَعِينُ ﴾ قال : هذا بَينِي وَبينَ عَبدي وَلعبدِي مَا سأَلَ فإذا قالَ: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ قال : هَذا لِعَبدِي ولِعبدِي مَا سَأل.

ففي جميع لقاءاتك مع ربك لن تجد منه إلا أَنّه سيستمع إِليك فلن يُقاطعك، سيظل يستمع إليك لساعاتٍ دون أن يملّ وستتحدث إِليه دُون حرج، وستشكُو إليه دُون خجل، فلن تسمع من يأمرك بالسّكوت، أو من يحدد لك وقتًا للانتهاء، أو أسلوبًا معينًا في التحدث، ولن تجد كل هذا إِلَا في لقائك مع اللَّه.

فهل شغلك أمر في دُنياك وثقُلت عليك الحُمول وتساءلت ما العمل؟

وكأنّك غريق في بحرٍ لا تكاد تُدرك اِتّساعه وتنتظر يد النَّجدة من أي عابر، إليك بسورة الفاتحة قم وتوضأ وقف بين يدي ربك واقرأ سُورة الفاتحة واِسأل اللَّه ما أهمّك، أتراه يردك وهو يقول ولعبدي ما سأل.

فما نزلت بي مُصيبة قطّ، ولا حلَّ عليّ بلاء، ولا تأخر عليّ دُعاء إِلَّا وتذكرت سُورة الفاتحة، فأحمد اللَّه على بلائي، وأشكر الله على ما نزل بي من قضائه، فانا أُدرك جيدا أنه عندما تضيّق عليّ الدُّنيا تتسع من أَجل

دعائي السَّماء.

فعليك تذكر ذلك جيدًا يا فتي كل مُصيبةٍ تُقابلها بالحمد يُخففها اللَّه عنك، تذكر كيف عوض اللَّه السيدة أم سلمة حينما حمدت اللَّه عزَّ وجلَّ بعد وفاة زوجها فقد ضاقت عليها الدُنيا، ومع حُزنها وثقل كربها إلَّا أنها لم تنس ربها، كانت تتذكر كلمات رسُول الله ﷺ وهو يقول " ما من مسلم تصيبه مصيبة، فيقول ما أمره الله به: " إنَّا لِلَّهِ وإنَّا إلَيْهِ راجِعُونَ" اللهمَّ أجرني في مصيبتي، واخلف لي خيرا منها، الا أخلف الله له خيرا منها.

كانت ترددها ولكن بداخلها كانت تُحدث نفسها يا ترى من في الأرض خير من أبي سلمة؟ لم تكن تعلم أن اللَّه قد أعدّ لها مُفاجأة سارَّة ومكافأة تليق بصبرها وعوض أقرب إلى المعجزة فعوّضها الله برسول الله ﷺ.

فذات يوم سأقول مُبتسما لقد عوضني اللَّه، عن كل تلك الأيام الصَّعبة، وعن كل السَّقطات المميتة، وعن كل الطَّعنات التي بالكاد ظللت بعدها على قيد الحياة.

والحقيقة أني أثق في اللَّه، رغم ما أُعانيه من حطام كفيل أن يُدمرني إلا أنّي اعتمد عليه أن ينتشلني من وسط حُطامي، وأن يُخرجني من دائرة

الفوضى التي تحُوطني، فأنا فقير إِليه، وضعيف دون قُوته، لا أقوى على مُواجهة الحياة وحيدًا دُون أن يكون بجواري.

أثق في كل أقداره، في لُطفه، وجوده، وكرمه، ومنعه قبل عطائه.

لقد تعلمت من سُورة الفاتحة ما لم أتعلمه من أي شخص في حياتي، أو موقف مرّ عليّ، تَعلمتُ الحمد لله، والامتنان له سبحانه.

فبعد كل تِلك العواصف التي هبَّت عليّ، وأقلقت مضجعي ومنامي، ما زلت على يقين أنها ستمُر وأن كل شيء بالدُعاء آت، وأن الحمد مِفتاح الرضا.

فاحمد الله على فراشٍ دافئ، واحمده على لقمة عيش، وعلى بيت يحتضنك من أمَواج الصَقيع، وعلى جسدٍ معافى لا يشتكي وجعًا ولا يؤرق لك نومًا.

الحمد لله! ما أجملها من كلمةٍ، صارع بها تلك المتاعب التي سببت شيخوخة مُبكرة لقلبك، وانتظر بها فرجًا ينسينك همّك، وكرمًا يدفئ برد قلبك، وكن على يقين أن الجبر سيكونُ معجزةً.

* الساعة الثانية عشر *

بعد دقائق من الآن وأنا أُسجل تلك الكلمات التي تقرؤها، تدق عقارب السَّاعة مُنتصف اللَّيل، الوقت الذي يزداد فيه ظُلمة اللَّيل وهدُوء الأصوات فلا تسمع إِلَّا همسًا.

خلا كل حبيبٍ إِلى حبيبه، هُناك من رقد لنوم بعد عناء يوم طويل، وآخر جلس يُشاهد حلقات برنامجه المُفضل، وآخرٌ قد أغلق باب غُرفته وفضَّل الظّلام على النّور.

فقد رفع يده إلى السَّماء ينادي فيها حبيبه الأوحد، بصوتٍ خافتٍ لا يكاد أن يسمعه إِلَّا هُو، ولكن كان بداخله يصرخ أنّ يا رب قد عجزت عني قوتي، وقلّت لديّ حيلتي، طرقت جميع الأبواب فلم أجد إِلَّا لبابك سبيلا، ولم يكن لي إِلَّا دُعاءك دليلا.

فاللَّيل هو أشدّ الأوقات قُربًا من اللَّه، الوقت الذي لا يقوم فيه إِلا محب، ولا يُصلي فيه إِلا عابدًا، ولا يدعو فيه أحد إِلا استجاب الله له.

في تلك العتمة من اللَّيل سينير اللَّه لك بالدُّعاء طريقًا، وسيُغير لك قدرًا، ويفتح اللَّه لك بابا من الفرج، فقط حسن ظَنّك باللَّه، فليس هُناك

أرحم بك من ربك.

كانت السَّيّدة حبيبة العدويَّة إذا جنّ عليها اللَّيل، تقول: إلهي أنارت النُّجوم، ونامت العُيون.. وغلَّقت المُلوك أبوابها، وخلا كُل حبيب بحبيبه.. وهذا مقامي بين يديك.. إلهي هذا اللَّيل قد أدبر، وهذا النَّهار قد أسفر.. فليت شعري أقبلت منّي ليلتي فأهنّئ أمّ ردَّدتها عليّ فأعزي، فوعزتك هذا دأبي ما أحييتني وأعنتني.. وعزتك لو طردتني عن بابك ما برحت عنه لما وقع في قلبي من مَحبتك.

هُناك مكاسب كثيرة تفُوت من أضاع على نفسه قيام اللَّيل، من ترك تلك الأوقات الهادئة وفضّل النّوم عن مُناجاة اللَّه.

لذلك فمن العجب أن يشكو أحد تأخّر الإجابة أو أنّ له عند اللَّه حاجة ولا يفزع إلى قيام اللَّيل.

لا أعلم لما تذكرت ذلك الشَّيخ الكبير ثابت البناني الذي واظب على قيام اللَّيل لسنوات امتدّت لأكثر من خمسين عامًا فما حانت ساعة وفاته ودفنه، إلا وبلبنة تَسقُط من قبره، وإذ بثابت قائمًا يُصلّي في قبره!

ليعيدوا أصحابه اللبنة إلى مكانها ويسرعوا لبنته، وقد امتلأت رُؤوسهم بالأسئلة ما كان عملُ أبيك؟

قالت كان يقوم اللَّيل طوال خمسين عامًا، فإذا جاء السّحر سمعته

يقول " اللَّهمَّ إنّ كنت أعطيت أحدا من خلقك الصَّلاة فى قبره فأعطنيها "، فما كان اللَّه ليرد له دُعاءه.

طاحت عيني الليلة على حديث لرسول الله يقول فيه ﷺ ": يَنزل ربُّنا تَبارك وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى السَّماء الدُّنيا حين يبقى ثُلث اللَّيلِ الآخر يقُولُ: من يدعُوني فَأَستَجيب لهُ من يسأَلُني فأُعطيهُ من يستغفرُني فأَغفر لهُ ".

فقيام اللَّيل وسيلة لأيّ رغبة عجزت عنها قوتك، قيامك باللَّيل والنَّاس من حولك نائمة، تبكي وتنادي فيها ربك، كفيلة أن تُصلح كل ما أفسدته الحياة، فدعاؤك في اللَّيل مَسموع، فهُو أشبه بسهم رمي إلى السَّماء بلا قوس فلا جاذبية تقيده، ولا قوة تحركه، ولا قانونً يحكمه، فسهام اللَّيل لا تُخطئ.

أنت تحتاج فقط لأن تنفض عن جسدك كل تلك الأعذار والحجج التي تقف عائقًا بينك وبين قيام اللَّيل، فالعقل بارع في خلق الأعذار، مُبدع في جمع الحُجج ليبني بينك وبين ربّك سدًا.

أنا أيضًا أُعاني من تلك الأعذار أجد عقلي يقول لي هؤلاء الَّذين استيقظوا في وقت السّحر ليس لديهم عمل في الثَّامنة صباحا كما لديك أنت، أو ربما هم تعودوا على الاستيقاظ في تلك الأوقات فيومًا ما

ستكون مثلهم وتستيقظ لتقوم اللَّيل.

كنت حبيسًا لأعذاري، ولو أردت قائمة من الأعذار التي تمنعني من قيام اللَّيل لوجدتني ملأت لك صفحات من الحجج، من أنّي أعود متعبًا من عملي، أو أنّي استيقظ مبكرًا، أو ربما لا أسمع صوت المنبه بسبب ثقل نومي.

كبرت بما يكفِي لأدرك أن اللَّه ما هدى أحدًا لقيام اللَّيل إِلا صفوة من النَّاس اختارهم اللَّه ليناجوه ليلا، ويستجيب اللَّه لهم دُعائهم بالأسحار،

يستغفرون فيغفر لهم، ويسألونه فيعطيهم، لهم شُهرة غير طبيعية، ليست الشُّهرة التي أقصدها أن تكون أسماؤهم بارزة على مواقع التَّواصل الاجتماعي، أو تُزيِّن صفحاتهم علامات التّحقُّق الزّرقاء.

شُهرتهم كانت بشكل مُختلف عمّا نعرفه فقد حفظت أسماءهم الملائكة وتداولتها فيما بينهم في الملأ الأعلى، لو غابُوا يوما عن قيام اللَّيل تساءلوا ماذا حدث لفلان أهو بخير أم أصابه مكروه؟ واستوحشوا غيابه فإِن كان مريضًا دعوا لهُ بِالشّفاء، وشهدوا من أجله أمام اللَّه.

يقولُ رسولُ اللَّهِ ﷺ: " يَتعاقبُون فيكم ملائكةٌ باللَّيل، وملائكةٌ بالنَّهار، وَيجتمعُون في صَلاة الصُّبح وصلاة العصر، ثُمَّ يعرُجُ الَّذين بَاتُوا فيكم، فيسأَلُهُمُ اللَّه وهُو أَعلمُ بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقُولُون:

تركناهُم وهُم يُصلُّون، وأَتيناهُم وهُم يُصلُّون"، فهل يردّ اللَّه يد عبد شهدت له الملائكة بالعبادة.

* دعوت ولم يستجب ليّ *

بعد أيام بل ربما شُهور أو سنواتٍ من الدُّعاء والإلحاح في كل صلاة وفي كل سجدة، ذرفت خلالها الكثير من الدُّموع وتوسلت لربي برفع يدي إِليه ولكن بعد طُول اِنتظار كانت النّتيجة أن الله لم يستجب لدعائي!

فما كُنت أحلُم به قد ابتعد عنّي وصار أبعد إِلى يدي مسافة الأرض من السَّماء فتساءلت هل ضاعت تلك الليالِي سُدى؟

وأين ذهبت كل تلك الصّلوات التي أطلت فيها السُّجود وبكيت في دعائي حتَّى يُستجاب لي؟

ألم يقل اللَّه ﴿ ٱدعُونِيٓ أَستَجِب لَكُم ﴾ ، فأين جواب دعوتي؟

من منّا لم يمر بتلك اللَّحظات، ومن منّا لم يجل في خاطره هذا السُّؤال، ويعتريه ذلك الشعور، بل ربما تجرّأ على اللَّه، ورُبما ابتعد عن اللَّه.

ومن منَّا لم يصبه إِحباط بل ورُبما شكّ في فائدة الدُعاء بعد نفاذ الأمل منه في اِستجابة دُعائه، ولكن لو فكرت للحظات رُبما أدركت أنّ اللَّه قد

اِستجاب لك من أول لحظات رفع يدك إِليه، فلم يؤخّر عنك إِجابة دعوتك، ولكن ليست دائما الإجابة أن تُعطى ما تُريد فرُبما اِستجاب لك ولكن عطاءه أعظم مما تطلب، وربما اِستجاب لك ولكنه أخر لك موعد تحقيق دعوتك فالفرج كُلما تأخر كُلما كان وقعه على القلب أجمل، وربما أخر لك دعوتك للآخرة.

قال ابن الجوزي:" اعلم أنّ اللَّه عزَّ وجلَّ لَا يرُد دُعاء الْمُؤمن، غير أنه قد تكون المصلحة في تأخير الإجابة، وقد لا يكُون ما سأله مصلحة في الجُملة، فيعوضه عنه ما يصلحه، ورُبما أخر تعويضه إِلى يوم القيامة فينبغي للمؤمن ألا يقطع المسألة لامتناع الإجابة، فإنَّه بالدُّعاء مُتعبد، وبالتَّسليم إِلى ما يراه الحق له مصلحة مُفوض.

لذلك كُلما تذكرت أن اللَّه هو من يدبر لي أقداري، ويوجّه لي دفّة حياتي، يجتاح قلبي طُمأنينة لا تُوصف، لا أخشى شيئا، لا أُفكّر في مُستقبل آت ولا ماض ولى، الحياة بالنّسبة لي اختيارات، تركتها للَّه فجعلت اختياراتي كُلهاً مُتعلقة بما أراده اللَّه لي.

فاجعل من حولك يتعجبون من قُدرتك على حمد ربك على أقداره في وقتٍ كان فيه الحمد صعبًا والرضا أصعب، فالحمد للَّه على أقدار وإِن كانت تُؤلمنا، والحمد للَّه على نصيب وإِن كان يُزعجنا، الحمد للَّه علَى البلاء، والحمد لِلَّه على العطاء، الحمدً للَّهَ على الحُزن، والحمد لِلَّه على

الفرح، الحمد لله بلا سبب، الحمد لِلَّه بلا طلب، الحمد لله على الهُموم، والحمد على انفراج الكُروب، والحمد لِلَّه دائما وأبدا.

يا فتى كل تأخيرٍ خلفه خير، وكل منع يعقبه خير، يعلم اللَّه ما يدُور في عقلك، وما يشغلُ قلبك، يرى ما تتطلّع إليه عيناك، ويُدرك كل فكرةٍ في رأسك، وكل دُعَاءٍ لهج به لسانك، فتصبر فواللَّه كلّ شيء بالدُّعاء آت.

أُدرك أن الانتظار صعب لَا يقوى عليه الكثِير، وأُدرك أنك قد تعبت من إطالة الأمل، ومُواساة النّفس، امتلأ قلبك بالخدوش، ورغم ذلك مازلت تنتظر اِستجابة دُعائك وفرج مولاك.

فسلامًا لِقلبك الصَّابر رغم كل بلاء، الحامد على الرَّغم من المنع، والشَّاكر رغم كل دعوة تأخرت.

لازم باب الدُّعاء فُورب السَّماء ما عاد مخذُولا من طرق ذلك الباب،

فلن تُحرم مِن دعوة، فإما يُعجلها الله لك في الدُّنيا أو سيدَّخرها لك في الآخرة، أو سيصرف عنك بها سُوء فأكثر فَاللَّه أَكثر.

وتذكر سيستجاب لِدعائك ما دمت لم تستعجل لَابد لك من الصَّبر، اِربط على قَلبك حدثه أن يصبر، فبعد الضّيق سعة، وبعد الهم فرجًا، ووراء كل محنةٍ هُناك منحة تعقبها، فلا تدُوم نكبة، ولا يطُول بلاء.

فأيُّوب صبر على بلائه ثمانية عشر عامًا لم يدعُ اللَّه فيها أن يرفع عنه البلاء ولما دعا لم يستعجل الشّفاء، قال رسول اللَّه ﷺ " يُستجابُ لأحدكُم ما لم يعجل: يقُولُ قد دعوت ربّي، فلم يستَجب لِي ”.

والآن أما آن لك أن تريح فؤادك المسكين، وعقلك الحائر من التّفكير، أن تترُكها لِتدبير اللطيف الخبير، فعانق قلبك وربّت عليه بيدك، طمأنه بين الحين والآخر، قل له على قدر المؤونة تأتي المعونة من اللَّه، والصَّبر يأتي على قدر البلاء، والفرج يأتي على قدر شدّة البلاء، قل لقلبك إن اللَّه قادر على أن يجمع شملك بما أردت.

فمع كل تأخير أو منع لدعوة كنت تُلح بها تجد العديد من الأسئلة تدور في ذهنك، فأقول لكِ اِهدأ ولا تُتعب عقلك بالتفكير فاللَّه يعاملنا كما عامل الخضر سيدنا مُوسى، فهناك أُمور تحدّث لك تُصيبك بالحيرة تخرجك عن صوابك وربما قلت بأعلى صوتك لماذا أنا يا رب؟

لأنك بكل بساطة لم تُحط بأمورك هذه خبرا، فلو بين اللَّه لك سبب منعه لدعائك لعلمت أنّه ما أراد بك إِلّا خيرا.

يقول ابن عطاء اللَّه السّكندري "إِذا رزقك الفهم في المنع عاد المنع هو عين العطاء، ويقول: ربما منعك فأعطاك وربما أعطاك فمنعك ".

فكونوا رُحماء بتلك الخوافق التي بين حناياكم، لُطفاء بقلوبكم، لا

تحملونها فوق طاقتها فهي لن تتحمّل، فقُلوبنا هشّة ضعيفة يرهقها الحُزن، فصبرها قائلًا لابُد لكل ذلك من حكمة، وخلف كل تلك الابتلاءات التي تتساقط على عاتقك، هُناك لُطف خفي لا يُدركه إلَّا اللَّه، ومن المستحيل أن يفعل اللَّه لعبده شيئًا سيّئًا، فالشّر الذي أنت فيه الآن حماك من شرٍّ أَكبر تجهلُه، فو اللَّه لن تجد تحت ظلال أقداره إلَّا رحمة واسعة، وستعلم مُستقبلًا لو لم يُوجهك اللَّه لهذا الطريق لما وصلت إلى ما فيه أَنت الآن.

فلو تأمَّلت لدقائق قصّة الخضر مع سيدنا مُوسى ربما وجدت إجابة لكل سُؤال دار في عقلك حينما دعوت اللَّه فلم يُجبك، فقد ذهب سيدنا مُوسى مسافرًا للقاء عبد عند مجمع البحرين قد أعطاه اللَّه من العلم ما لم يُعطه لنبيّه موسى، وكانت علامة لقائه فقدُ سيدنا مُوسى لحوته.

فقد قال سيدنا مُوسى يا رب فكيف لي به؟

قال: تأخُذ معك حوتًا فتجعله في مكتل فحيثما فقدته الحُوت فهو ثمَّ.

فأخذ حُوتًا فجعله في مكتل ثُمَّ انطلق ومعه فتاه يُوشع بن نُون حتّى إذا أتيا الصَّخرة وضعا رُؤوسهما فناما واضطرب الحُوت في مكتله فخرج منه فسقط في البحر ﴿ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾، فما كان

من سيّدنا مُوسى حينما علم من فتاه ضياع الحُوت، إِلَّا أن قال هذا ما كنا نبغ، فرجعا يقُصّان أثرهما حتَّى أتيا عبدًا عند صخرة، فقال له سيدنا مُوسى بلسان يعلوه أدب الأنبياء ﴿ هَل أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمتَ رُشدا ﴾.

هُناك أمُور يقف العقل أمامها حائرًا حتَّى نبي اللَّه مُوسى ربما لن يصبر على ما سوف يراه، فهكذا حالك مع ما تمر به من أقدار اللَّه تقف أمامها حائرًا عاجزًا عن تفسيرها، رغم أن الخير كل الخيِّر في أقدار اللَّه التي اِختارها لك، حتَّى وإِن كانت في ظاهرها الشّر.

لا أعلم لما تذكرت السّيدة مريم لما بشرت بسيدنا عيسى، أصابها الذُّهول والاندهاش ولم يكن على خاطرها سوى سُؤال واحد ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَد وَلَم يَمسَسنِي بَشَر ﴾ ؟ فكيف أن تحمل دون زوجٍ، فماذا سيقُولَ النَّاس عنها؟

لقد كانت ترى أنّ ما تمر به كفيل بأن يجعل الدُّنيا تسّود في وجهها، لدرجة أنها تمنّت الموت فقالت: ﴿ يَٰلَيتَنِي مِتُّ قَبلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسيا مَّنسِيّا ﴾ ، لم تكُن تعلم أن ما تمُر به من محنة هو عين المنحة ، فلم تكن تعلم أن اللَّه قد اِدخر لها في الغيب من الخير أجمله.

فحملت في رحمها بنبي، يُكلم النَّاس في صِغره، وبسببه يحفر اِسمها

في التَّاريخ لتصبح من أعظم النّساء وأكملهم، وتسمّى باسمها سُورة في القُرآن الكريم.

فما كان سببًا في حزنك اليوم ربما يكون هو سر سعادتك طول عمرك، فإذا أصابك قدر لا يُرضيك تذكّر قوله تَعالى ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكرَهُواْ شَيئا وَيَجعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيرا كَثِيرا ﴾.

اِمسح بهذه الآية على قلبك المكسور، وفؤادك المحطم اِجعلها دواءً للصّبر على كل حبيب فقدته، أو صديق تخلّى عنك، أو حُلم قد صار أشبه حُدوثه بالمستحيل، فلابُد أن وراء كل هذا من حكمة لا يعلمها إِلّا ربك وخيرًا كثيرًا ينتظرك بعد كل هذا العناء والجهد، وما جهلته اليوم ستدرك الخير منه غدا.

وكذلك الأمر مع سيدنا موسى فبرغم أن الخضر قد حذّر سيدنا مُوسى أنه سيرى أمُورًا ستثير دهشته، ستبعث في عقله الأسئلة، والأصعب أنه لن يظل صامتًا على ما سيراه.

ينطلقان الاثنان ليبدأ رحلتهما ليصلا إِلى سفينة لمجموعة من المساكين يعملون طوال يومهم ليسدّوا حوائجهم اليوميَّة، فسفينتهم هي قارب النّجاة لهم من الماء والنَّجاة من هلاك الفقر والجوع، ليركب الخضر وسيدنا مُوسى السّفينة وأول ما يصعد الخضر يحدث عيبًا جسيما

في جسم السَّفينة، هُنا لم يتمالك سيدنا مُوسى نفسه، بعد الذي رآه بأُم عينه من الخضر، وكأن لسان حاله يقول: أهذه كلمة الشُّكر التي تُقدمها لقوم ساعدونا؟

أيُعقل أن يكُون هذا فعل الرجل الصالح الذي أمرني اللهَّ باتّباعه!

أهذا هُو العبد الذي أُعطي علماً لم يكُن لي!

يركب سفينة لمساكين وبدل من أن يُعطيهم أجرًا مُكافأة لهم على ما فعلُوه يحدث لهم عيبا في سفينتهم!

فلم يهدئ سيدُنا مُوسى إلى أن قال:﴿ أَخَرَقتَهَا لِتُغرِقَ أَهلَهَا لَقَد جِئتَ شَيئا إِمرا ﴾ وكأن الخضر يبتسم وهو يقُول : ﴿ أَلَم أَقُل إِنَّكَ لَن تَستَطِيعَ مَعِيَ صَبرا ﴾، يتذكر سيدنا مُوسى الوعد الذي قطعه في بداية رحلته وكأنه يقُول لنفسه مهلًا انتظر لابُد من تفسير لكل هذا، ومن المُؤكد أن هُناك سببًا قويًا لما أقدم عليه من فعل، فيعتذر سيدنا مُوسى قائلًا:﴿ لَا تُؤَاخِذنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرهِقنِي مِن أَمرِي عُسرا ﴾.

وتستكمل الرّحلة ليقابل الخضر في طريقه غُلامًا يافع العُمر مازال صغيرًا مُقبلا على الحياة ينتظره عُمر طويل، ولكن كان للخضر رأي آخر، أم يجب أن أقُول كانت لإرادة اللهَّ طريقا آخر لهذا الغُلام.

فيمسك الخضر بالغلام ليقتله!

هُنا يرى سيدنا مُوسى موقفًا لا يُمكن لبشرٍ السُّكوت عليه، إذ كيف لعبدٍ صالحٍ أن يتجرّأ على أمرٍ مُحرّمٍ كالقتل؟

وأن يسفك دمًا وليست دمًا عاديةً، بل دم غُلام لم يفعل شيئا، فما الذّنب الذي أذنبه ذاك الصغير؟ وما الجُرم الذي اِرتكبه؟ ليقتل بهذه الطّريقة.

فكيف لسيّدنا مُوسى أن يهدأ روعه، وأن يسكت على هذا الأمر الذي يُنكره أيّ عاقل على وجه الأرض، ليُسارع قائلا: ﴿ أَقَتَلتَ نَفسا زَكِيَّةَ بِغَيرِ نَفس لَّقَد جِئتَ شَيئا نُّكرا ﴾.

لم ير سيدنا مُوسى خيرًا في قتل الغُلام، بل رآه أمرا مُنكرًا لا يقدم عليه عاقل، وهنا يبتسم الخضر من جديد ويذكره بوعده القديمٍ ﴿ أَلَم أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَستَطِيعَ مَعِيَ صَبرا ﴾.

فيعتذر سيدُنا مُوسى مرة أخرى، ولكن هذه المرَّة يطلُب منه أن تنتهي تلك الرّحلة إن سأله مرة أُخرى، أو نسي وعده من جديد.

وفي طريقهم يمُرّان على قرية ليطلبا من أهل القرية أن يُضيفهما في اِنتظار قليل من طعامٍ أو شراب، ولكن الغريب أن أهل القرية بأجمعهم رفضُوا!

لم يُقدّموا لهم طعامًا، ولم يجعلوا لهم مأوى، أو يُعطونهم فراشًا

للمبيت، ورغم ذلك ينظُر الخضر فيرى جدارًا في القرية كاد أن يسقُط فأقامه وجعله مُعتدلًا وعاد الجدار أفضل ممَّا كان عليه.

كان الخضر قادرًا أن يقول لقد رفض أهل القرية أن يُطعمونا وقد بخلوا علينا، كيف لي أن أُقيم جدارًا في قرية أهلها لا يستحقُّون أن يفعل لهم معرُوف؟

ولكن لا تستوي الحسنة ولا السّيئة، فلا يستوي من قدم خيرًا ومن قابله بالشّر ولا من فعل معرُوفا وقوبل بالنُّكران، ولعل هذا سبب أنّ سيّدنا مُوسى قال ﴿ لَو شِئتَ لَتَّخَذتَ عَلَيهِ أَجرا ﴾.

وكانت هذه الكلمة هي نهاية المطاف، فقال الخضر لسيّدنا مُوسى ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَينِي وَبَينِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأوِيلِ مَا لَم تَستَطِع عَّلَيهِ صَبرًا ﴾.

أراك الآن ربما تتساءل في نفسك قائلًا لقد خرج المؤلف عن مضمار كتابه وقص علينا قصة نحن نحفظها عن ظهر قلب، ربما لم يجد ما يكتُبه أو هو يريد فقط أن يُطيل صفحات كتابه.

فأقول لك صبرًا يا فتى سأُنبئك بِتأويل ما لم تَستطع عليه صَبرًا.

نحن في حياتنا نمر بتجارب عديدة مع الدُّعاء، نرفع أيدينا وفي داخلنا يقين أن ما نطلُبه هُو الخير، وما نرجُوه هُو السبيل لسعادتنا، ولكن من أدراك أن ما تطلبه هُو الخير وليس الشّر؟ وأن ما ترجُوه ربما

هو كفيل أن يحول حياتك إلى جحيم.

أقدار اللهَّ وإِن كانت مُؤلمة ففيها من الخير الكثير ما تجهلُه فلا تقُول دعوته وحرمني، أو دعوته ولم يُجبني، لا هُو أعطاك ما فيه الخير لك، وحرمك مما فيه الشَّر لك.

وفي قصة الخضر مع سيدنا مُوسى أَكبر إثبات على أن المنع هو عين العطاء، لذلك يقُول الخضر أتدري لما أحدثت عيبًا في السّفينة التي هي مصدر قُوت وعيش لمساكين ليس لهم في الدُّنيا إلّا تلك السّفينة؟

لم أفعل ذلك جُحودًا مني، بل كان أفضل شُكرًا لهم على حملهم لنا أن أخرق لهم سفينتهم فإِن ورائهم ملكا يأخُذ كل سفينة غصبا، فلو لم يكُن في السّفينة عيب لحرموا من سفينتهم طيلة حياتهم ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَت لِمَسَٰكِينَ يَعمَلُونَ فِي ٱلبَحرِ فَأَرَدتُّ أَن أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِك يَأخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصبا ﴾ "، بدأت الأسئلة التي كانت في عقل سيّدنا مُوسى يُجاب عليها وبدأت تتحوّل الحيرة إلى اندهاش من مقادير اللهَّ.

أما الغُلام ذلك الطفل الصغير الذي قُتل دون ذنب، ونفس دُون نفس، كان خطرًا على أبويه فلو ظل على قيد الحياة لربما كفر أبواه، فأراد اللهَّ أن يُبدلهما بطفل يكُون صالحًا بارًا بوالديه، فكان القتل للغلام الذي في ظاهره الشَّر هُو عين الخير.

قال قَتادة: فرح أبواه حين وُلد، وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي كان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء اللَّه، فإِن قضَاء اللَّه للمؤمَّن فيما يَكره خير له من قضائه فيما يُحب.

وصحَّ في الحديث: " لَا يَقضِي اللَّه للمؤَمّن قضاء إِلَّا كان خيرا لَه ".

وأما الجدار الذي أقمته دون أجر فقد كان لِغلامين يتيمين في المدينة وكانا تحته كنز لَهما فأراد ربك أن يُؤَخّر خُرُوج ذلك الكنز، فلو سقط الجدار لضاع كَنز الغلامينِ.

فإِن أخر اللَّه عنك دُعاءك فاعلم أنه يُؤخره ليعطيك إِياه في الوقت المناسب لك، فلو سقط الجدار لما انتفع الغلامان بكنزهما فلا يُؤخر إِلا لخير.

فلا تهلك نفسك بالتفكير في كيف سيدبرها اللَّه، فأقدار اللَّه حتما ستنفذ،حتى ولو كانت الأُمور مُتعسرة، والأبواب أمامها مُغلقة، فما طلبته سيأتي ولكن في وقته المناسب فاطمئنّ.

هنا ذهبت كل الأسئلة التي دارت في عقل سيدنا مُوسى مع دهشة من جميل أقدار الله، فُلو لم تخرق السَّفينة لسلبت، وُلو لم يقتل الغُلام لكفر والديه، ولو لم يُبن الجدار لضاع كنز الغلامين، فنم مُطمئنّا راض بقضاء اللَّه، مُدركا أن وراء تلك الأقدار هُناك ربٌّ حكيم، لا ينسى دُعاءً

ولا يخذُل عبدًا، يقلب الأحوال كما يقلب بين اللَّيل والنَّهار، فاجعل من الدُّعاء مركبك وسفينتك، ودرهمك وديناركَ، وناقتك وحصانك، تماسك يا فتى فالفرج قد اِقترب.

أنا أعلم أنك مُنهك قليل النَّوم، جدارك الصلب شارف على الانهيار، وقشرتك السَّميكة التي تحتمي خلفها شارفت على التَّآكل، ودرعك صار صدأ لا يقوى على رد كل تلك الضَّربات، ولكن صبرًا وإياك واليأس فلا تكن كبحارٍ توقف عن التجديف قبل أن يصل إلى اليابسة، أو كشمعة اِحترقت قبل عودة الكهرباء، أُثبت فمهما طالت المعركة لا بُد للحرب أن تضع أوزارها، ولابد للجندي يومًا ما أن يستريح.

* سهام القدر لا تخطئ *

كن دائما على يقين أن ما كتب لك لن يكون لغيرك، وأن سهام القدر لن تُخطئك.

كنتُ قد حفظت حديثًا للنبي ﷺ يقول فيه" حاجّ مُوسى آدم، فَقال له: أَنت الذي أَخرجت النَّاس من الجنَّة بِذنبك وأشقيتهم،

قال: قال آدم: يَا مُوسى، أَنت الذِي اصطفَاك اللَّه بِرسالته وبكلامه، أتلومني على أَمرٍ كتبه اللَّه علي قبل أن يخلُقني؟

قال رَسُول ﷺ: فحجَّ آدم مُوسَى".

كان اليقين في قلب سيّدنا آدم، ورضاه بقضاء ربه أنّه علم أن ما كتب عليه هو الخير له، وما أراده اللَّه له حتما سيصيبه.

لذلك كان عزائي لنفسي، أن أقدار اللَّه هي من ترسم لي طريق حياتي،

وأنّ اللَّه يعلم بتلك العُيون التي ذبلت من البُكاء، وتلك الليالي التي ظلَّلنا فيها ساهرين، نُصارع الفراش في محاولة بائسة للنَّوم، ويعلم بتلك الوسائد التي تشهد على ثقل أحزاننا، ويعلم كم تزاحمت بنا الطُّرق،

ويدرك الغصة في حلقنا، يعلم أننا نُقاتل البلاء بالصَّبر، ونجاهد أحزاننا بالدُّعاء، نسأله ألّا تضيع دعواتنا سُدى، وألا يترك قُلوبنا متخبطة حائرة لا تدري أيّ طريق تسلُك ولا أيّ باب تطرق.

الرضا بالقدر يُزيل من قلبك السُّخط على واقعك، والغضب على مرارة الحياة، فلو رضيت بقدرك لما سألت يوما لماذا لم يستجب الله لدعائك؟

لأنك ستعلم أنّ ما اختار لك الله إلّا ما يُرضيك، وما أبعد عنك إلّا ما يضُرك، فدع أقدار اللَّه تُدير لك دفّة حياتك، ولا تشغل نفسك بغدٍ فرزقك مضمُون وأجلك مكتُوب، وإياك والقلق فكيف يقلق عبد ورزقه بين يدي اللَّه.

الرّضا بالأقدار يُريح القُلوب، لن يجعلك تحزن إن تأخر عنك رجاؤك، أو لم يُلب لك ما كنت تُلح به، ستقُول لنفسك لم يحرمني ربّي وإنما رحمني، فلم يمنعني ما سألت، وإنما رحمني من شرّ ما طلبت.

لذلك فأوَّل طريق إجابة دُعائك أن ترضى بقضاء اللَّه، فلو رضيت لرفع عنك البلاء.

كانت للشَّيخ الشَّعراوي كلمات لمست قلبي قبل أن تصل إلى مسمعي فقال" لا يرفع اللَّه قضاء حتّى يرضى به، ولذلك يُطيل اللَّه البلاء على من

لم يرض بالقضاء، فلو رضوا لرفع اللَّه عنهُم، مثل الأَب الذي يضرب ولده على خطأ اِرتكبه، فإِن خضع وانصاع لوالده تركه، بل ويحنو عليه ويرضيه، فإِن اعترض زاده ضربا.

إِذن: اللَّه تعالى يُريد أن يربّي عبده بالابتلاء، فاللَّه دائما ما يختار لك ما هو الأنسب لك، فلن تجد تحت أستار أقداره سوى ما يسرك إِنَّ أحزنك اليوم بمنعه، أدهشك غدا بعطائه.

اِجعل اللَّه دائما أمامك، اِحفظه في قلبك، تذكره دائما ولا تحرّم نفسك من يوم يمر عليك دُون أنَّ تذكر اللَّه فيه، فلا تسأل أحدا سواهُ، ولا تطرق باًبا إِلَّا بابه.

وثق أنّه كلما زادت الأيّام صُعوبة فإن الفرج قريب، وأنَّ أشدّ أوقات اللَّيل ظُلمة بعدها يكُون الفجر، فلا عُسر إِلَّا وبعده يسر يتبعه.

علق تلك الكلمات على جُدران قلبك قبل جُدران بَيتك فعن ابنَ عَبّاس رضي اللَّه عنهُما قال: كُنت خَلف اَلنبي ﷺ يوما فَقَال: احفظ الله يَحفظكَ احفظ اللهَ تَجدْهُ أمامك تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدةَ قد جفَّ القلمُ بما هو كائنٌ فلو أنَّ الخلق كلَّهم جميعًا أَرادوا أن يَنفعوكَ بشيءٍ لم يَقضه اللهُ لك لم يَقدروا عليهِ أو أَرادوا أن يضروكَ بشيءٍ لم يَقضه اللهُ عليكَ لم يَضروكَ واعلم أنَّ النصرَ مع الصبر وأنَّ الفرج معَ الكربِ

وأنَّ معَ العسرِ يسرًا".

إنَّ اليقين المزروع بداخلنا أن أقدار اللَّه خير، وأن لنا ربًا قد خلقنا فكيف ينسانا، لنا نصيب من رحمته ونصيب من لُطفه، لن يخذُل تلك القُلوب التي تعلقت ببابه، ووقفت على أعتابه، ونادته بلسان اليقين أن يُزيل عنها المكروه، وأن يرد عنها سوء القضاء، فلا يُرد عنك مكرُوه نزل بك إلَّا بالدُّعاء، ولا يبعد اللَّه عنك سهم شر قد أُطلق ليصيبك إلا بالدُّعاء، قال النبي ﷺ "لَا يَرُد القدر إلَّا الدُّعَاء".

أتعلم أنا لست من المصدّقين بفكرة المصادفة، ولم أُؤمن يوما بقوانين المصادفة والاحتمالات، ولا أن الكون يدُور بعشوائيّة دُون نظام يتحكم به، فأنا دائما استبدل كلمة مُصادفة بكلمة أقدار، فليست مُصادفة أنّي سهرت ليلتي تلك وأمسكت قلمي وكتبت تلك الكلمات التي تقرؤها أنت الآن، ليست مُصادفة يا فتى بل قدر، ساقني اللَّه من أجلك لأنك حزين، مُنهك، ومُتعب، أنت سألت ربك أن يُواسيك، فأيقظني ربّي من نومي، وأصابني أرق في ليلتي تلك لأكتب من أَجلك، فكل حَرف دُوّن في هذا الكتاب كتب من أَجلك أنت ليواسيك في أحزانك، وليربّت على فُؤادك، ويزيل عن كاهلك ثقل الحياة.

هي أَقدار اللَّه تحوطنا من حولنا، تُزيل العقبات من طُرقنا، وتنتشلك من بين أنياب الخوف، وبراثن القلق.

لا يُوجد شيء مُصادفة قراراتك التي حسبت أنها خطأ وغرقت في النَّدم عليها لم تكُن مُصادفة، البلاء الذي أنت فيه الآن لم يكن مُصادفة، دُخُول شخص ما إِلى حياتك ورحيله منها لم يكن مُصادفة، تأخُّر دعواتك التي تعلّق قلبك بها ليست مُصادفة هي، أقدار اللَّه يا فتى فحسن ظنّك باللَّه.

* عن عبادة تسمى الدعاء *

العبادة التي لم يُحدد اللَّه لها موعدًا، ولم يجعل لها مكانًا مُحددًا تذهب إِليه، فقط ترفع كفّيك ودع لسانك ينطلق بما شئت من الأدعية.

أطلب من اللَّه ما شئت، لا تختار الألفاظ، ولا تخف من خطأ أو نسيان، اِذهب إِليه بلعثمتك واشكو له ما بك، واطلب منه أن يجبر قلبك من كل كسرٍ أو خذلان، فالدُّعاء عبادة يُحبّها اللَّه.

يُحب أن يسمع صوتك، يُحب أن تُلح عليه في ظُلمات اللَّيل.

فكُلما تأخّر عنك جواب طلبك كُلما زاد حُب ربك لك،فمن منَّا حينما يجلس لشخصٍ يُحبّه لا يملّ من حديثه، بل ويرغب في أن يطُول الوقتُ ليظل فقط بجواره يجلس له ويحدّثه، فهكذا يُعاملنا ربنا وله سبحانه المثل الأعلى.

لذلك دائما ما أُجري حديثًا مع نفسي، أُحدثها عن الأبواب المغلقة فتحدّثني عن الدُّعاء، أُحدثها عن الأيّام المعقّدة فتحدّثني عن لُطف اللَّه، فكن على يقين أنه سيأتيك ما طلبت، سيأتيك ما تُلح به، سيأتيك فواللَّه لم ينس ولن ينسى، أنت عبده وإِن كنت عاصيا، ومن خلقه ولو

كنت تلُوذ بالفرار بُعدًا عنه، ومرحب بك وإِن أطلت البعاد، عد إِليه بدعائك الذي عانيت في ترتيب كلماته، ولا تدع أحدًا يرى جانبك المظلم إِلَّا ربك، كُن كالقمر لا يظهر منه إِلَّا ضوءه ولا يرى النّاس منه جانبه المعتم، ومع اللَّه أظهر له كل ضعفٍ في جسدك، وكل انكسار في قلبك، هزائمك التي لا تُخبر بها أحدا أَخبر بها ربّك، قل يا رب أُلُذ بك إِليك، واحتمي من غيرك بك، أنا الفار من حولي وقوتي إِلى حولك وقتك، ومن ضيقي إِلى رحمتك.

أخبر اللَّه بكل شيء، أشكُو له ما بك، تكلّم دون خجلٍ، وابكِ دون حرج، فوالذي نفسي بيده لن تجد أرحم بك من ربك.

هل سمعت يومًا عن عبادة تزيد لك حسناتك دون جُهد أو تعب؟

أغمض عينيك لدقائق وتخيّل معي أنّ يوم القيامة قد أتى، وإِذ بالصُّحف قد نشرت، ونصبت الموازين ونادت الملائكة عليك لتأخذ كتابك، وأخذت نفسك تُحدثك، ما العمل؟

فلم تُعد لهذه اللَّحظة إِلَّا قليلًا من صلاة وصيام، فحينما تقرأ كتابك تجد الكثير من الحسنات!

فأرى في عينيك الدّهشة وسؤال يملأ رأسك من أَين لي بكلّ تلك الحسنات؟

فتتذكر تلك الدّعوات التي رفعت بها صوتك مُناديًا يا رب وظننت أنّه لم يستجب لك.

فهذا هو الدعاء يا فتى، هو صديقك إن خانك الصديق، وهو الحبيب إن غادرك محبوك، وهو المتمسك بيدك، إن أفلت أحدهم يدك في منتصف الطريق، الملازم لك وإن طال السفر، والصابر معك حتى لو اشتد البلاء، اِنه الدعاء، تلك الكلمات التي همست بها لربك في ليلة ظلماء، اِنه الدعاء يا فتى ما لجأ إليه مخذولا إلا شفاه الله، ولا مكسورًا إلا جبره الله، الفقير مع الدعاء غني، والمظلوم مع الدعاء منتصر.

فحسن ظنّك بربك واعلم أنه ما كان لك لن يأخُذه غيرك حتّى لو اجتمعت عليك الدُّنيا بأجمعها، وما كان لغيرك لن تُعطاه مهما حاولت، فلا تسأم من دُعائه ولا تتهمه بتأخير الإجابة، وتقُول حرمني ما طلبت، فرُبما أشقاك اليوم ليسعدك غدًا، وإن لم يُجبك عاجلًا أثابك أجلًا، فالدُّعاء هي المعركة الوحيدة التي لا يُوجد بها هزيمة.

* خواطر الإمام *

جذب انتباهي في يوم تفسير الشّيخ الشعراوي لقوله تعالى ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ ، فقد بدأ بدايته المعهودة وهو يقُول لقد وقفنا في اللّقاء السّابق عند قوله سُبحانه ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ .

ثُمَّ أخذ الشّيخ يتكلم بطريقته الجميلة التي لا تملُّ الأُذن من سماعها، فيقُول إن أردت أن يُجيبك اللَّه فاستجب له كم يحب أن يستجيب اللَّه لك، فاللَّه لا يرد أحدًا عن بابه حتّى ولو كان عاصيًا، ولكن الأجمل أن تطرق بابه وأنت له طائع، هُو ينتظر منك لحظات رفع يدك، لحظات رُجوعك إليه بعد عصيانك له، يفرح بتوبتك أكثر من فرحك أنت برجوعك إليه.

فقد أوحى اللَّه إلى سيدنا داوُد عليه السَّلام فقال: "يَا داوُد لو يعلم المدبِّرون عنّي كيف انتظاري لهُم ورفقِي بهم وشوقي إلى ترك ذُنوبهم لتقطعت أوصالهم لمحبّتي ولماتوا شوقا إلي يا داوُد هذا حالي بالمدبِّرين عنّي فكيف بالمقبلين علي.

ثُمَّ أكمل الشَّيخ كلماته بعبارات غيرت نظرتي عن الدُّعاء " أنّك حينما

رفعت يدك إِلى الله ما كنت تطلب إِلَّا الخير ولكن الله لم ير في مطلبك خيرًا، فلا تقل لم يستجب لي، لا هو استجاب لك ولكنّه أبعد عنك شرّ دعوتك.

وقعت كلماته على مسامعي وكأنّي أقرا تلك الآيات لأول مرّة في حياتي، فإِن ربّي علم أن ما طلبته لم يكُن خيرًا وكان أرحم بي من نفسي فقد كُنت أُلح في شرّ وهُو أبعده عنّي.

ويستكمل الشّيخ سرد تفسيره وكأنما ينظّم عُقودًا من نُور، فيقُول ثُمَّ بعد ذلك اِجعل حظك من الدُّعاء العبادة فمن شغله ذكر ربّه، أعطاه الله أضعاف ما طلب.

ثُمّ قال ولعلنا لا نُحسّن الدُّعاء فهذه السَّيّدة عائشة أرادت أن تتعلَّم الدُّعاء من رسُول الله ﷺ " فقالت: يا رسُول الله " إن وافقت ليلة القدر فما أَقُول فيها"، قال ﷺ: قُولي "اللَّهمَّ إِنَّك عَفو تُحب العفو فاعف عَنِّي ".

وكما أنّ الله فَتح لك باب دُعائه فلا يدخل هذا الباب إِلَّا طيّبا فالله طَيّب لا يقبل إِلَّا طيّبا "، فلو تأمَّلت لدقائق لعلمت أنّه لم يستجب لك بُغضًا لك بل لأنك قد أخطأت في حقّ نفسك فابتعدت عن ربّك.

قال اَلنبي ﷺ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُم ﴾ ثُمّ ذكَر الرَّجُل يُطيلُ السّفر أَشعث أَغبر ، يمُدُّ يديه إِلى السَّماء ، يا ربّ، يا

ربّ، ومطعمُهُ حرام، ومشربُهُ حرام، وملبسُهُ حرام، وغُذي بالحرامِ، فأنّى يُستجَابُ لِذَلِكَ؟

فتب إلى ربّك وعد إليه نقيّا، ارمي بذنوبك قبل أن تطرّق بابُه، عد إليه مُستغفرًا والله سيقبلك مهما كانت ذُنوبك، فلا ذنب أعظم من رحمة الله.

اِذهب إليه ركضًا، فإن لم تستطع فهرولة، فإن لم تقدر فامشي إليه، وإن لم تعنك قُوتك فحبوًا، فُوالله لا يرد لاجئًا سار إليه.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رَسُول الله ﷺ يَقُول: " قال الله عزَّ وجلَّ: يا ابنَ آدمَ إنَّكَ ما دعوتَني ورجوتَني غفَرتُ لَكَ على ما كانَ فيكَ ولا أبالي، يا ابنَ آدمَ لو بلغت ذنوبُكَ عَنانَ السَّماءِ ثمَّ استغفرتَني غفرتُ لَكَ، ولا أبالي، يا ابنَ آدمَ إنَّكَ لو أتيتَني بقرابِ الأرضِ خطايا ثمَّ لقيتَني لا تشرِكُ بي شيئًا لأتيتُكَ بقرابِها مغفرةً ".

لذلك فلن تجد طريقًا أجمل من طريق الله، لن يُعاتبك بعد رُجوعك إليه ، ولن يطلُب منك تبريرًا عن بُعدك عَنه، فمتى عُدت وجدت اَلباب مَفتُوحًا من أجلك وكأنَّه يقُول لك لا عليك يا عبدي، فمتى جِئتني وجدتني، ومتى طلبت منّي أمرًا إلَّا وأجبتك، فمتى عُدّت إليه وجدت الرَّاحة بجواره، والطُّمأنينة على أَعتابه، إِنَّ كان بك مرض شفاك، وإِن

كان في قلبك حُزن أبدله بِفرحة تُنسيك حُزنك، وإِن كنت مظلُوما أخذ بيدك ونصرك على من ظَلمك، فأقبل يا فتى ولَا تخف، وأسرع من خُطاك نَحو ربك، واطمئنّ فأنتَ مُقبل على من بيده ملكُوت كل شيء.

﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾

تذكر دائمًا أن اللَّه جعل الخُطوة الأُولى تأتي منك، ومفتاح الوُصول إليه دائمًا معك، هُو يريد منك أن تأتي إليه ولو ماشيًا وهُو سيقبل عليك هرولة، حرّك فقط أنت مفتاح الوُصول له، وسر بقدمك في الطريق إِليه.

اُذكره يذكُرك، أدعُه يستجيب لك، تقرّب من أجله شِبرًا؛ يتقرّب من أجلك ذراعًا، أقبل عليه بخطوة؛ يقبل عليك بخطوات، لا تبتعد عنه يومًا فوالله ما نال منك الشيطان ولا اِلتهمك ببراثنه إلا حينما اِبتعدت عن ربك فالذئب لا يأكل من الغنم إلا القاصية.

فارفع صوتك بندائه، وحرّك لسانك بِدعائه، إِن أَردت طعامًا فقل يا رب، وإِن أردت كساءً فقل يا رب، ولو أردت مغفرة لذنبك فقل يا رب، واطمئن فربك لا يُعجزه دُعاء ولا ينقُص بِكثرة السُّؤال مُلكه.

تخيّل لو اِجتمَع الإنس والجنّ في مكانٍ واحدٍ على وجه هذه البسيطة والجميع طلب مِن اللَّه مسألته لا ينقُص ذلك من ملكه شيئًا إِلّا كما ينقُص المخيط إِذا أُدخل البحر.

فبادر نحو ربك بالخطوات، ولا يشغلنك طُول الطريق، ولا قلة السالكين أن تملّ من السَّير إِليه وأن تقُول لن أصل فسائر إِلى اللَّه سيصل في النّهاية، سيصل وإن طال الطريق، سيصل وإن قلّ الزاد، سيصل رغم الصعوبات، ورغم العقبات، سِر إليه دَامع العينين، مكسُور الفُؤاد، سِر بأثقالك، بهمومك، بِأحمالك، إِن تَعثرت فلا بَأس، وإن سَقطت فَلا تلتفت، كُن كعمرو بن الجموح سار إلى اللَّه حتى وطأ بعرجتهِ الجنة.

داوي قلبك العليل بنفسك، ولذّ بربك واستمسك بحبله، تلك العُروة الوُثقى التي واللَّه ما خاب من لاذ بها، فإِن ذكرتهُ ذكرك، وإِن سألتهُ أعطاك، وإِن اِستغفرت غفر اللَّهُ لك.

وعليك أن تعلم أنَّ كل شيء قابل للتّغيير، وأن الأحوال لا تبقى دائما على وتيرة واحدة، الصديق يذهب، والحبيب يُفارق الكُل قابل للتغيّر، لا شيء يبقى يا فتى، إِلَا ربّك فمن المستحيل أن تلتفت يومًا فلا تجد اللَّه بجوارك.

فاللَّه يرى حالك ويرى كم تحتاج إِليه ولكن هل فكرت أَنت أن تسأله أن تطرق بابه، أن تلجأ إِليه، هو يجيب كل مُضطرٍ، ويعطي كل سائلٍ، وكل واقف على بابه.

فإِن ضاقت بك الدُّنيَا فلا تكُن وجهتك للبشر، وإِنمَا اِجعل وُجهتك

لِلَّه الوجهة الوحيدة التي لا يُخطئ قاصدها.

فالبشر إنساندوك يومًا تخلوا عنك آخر، فلا تدعُو إِلَّا من إِذ مسك ضُر شفاك، وإِن لجأت إِليه آواك.

فعن أبى تميمة الهجيمي، عن رَجُل من بلهجيم قال: قلت: يَا رَسُول اللَّه، إلامَ تدعو قالَ أدعو إلى اللَّهِ وحدَهُ الَّذي إن مسَّكَ ضرٌّ فدعوتَهُ كشفَ عنكَ والَّذي إن ضللتَ بأرضٍ قفرٍ دعوتَهُ ردَّ عليكَ والَّذي إن أصابتكَ سَنةٌ فدعوتَهُ أنبتَ عليكَ".

فلا تعتصم إِلّا بحبل ربك واعلم أنه إِن ضاقت فثمَّ فرج قريب، وما ضاقت إِلَّا لتتَّسع، وما ابتلاك إِلَّا لتلجأ إِليه، فَإِن نزل بك بلاء ردَّد ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾.

قل يا رب ناداك مُضطر قد ضاقت به السُّبل، وَقلّت به الحيل، لم أَطرُق باب أحد إِلَّا أنت، ولم أتعلق إِلَّا بأستار قُدرتك أنت، وما لجأَت لأَحد إِلَّا لك أنت، فهل ترد ضعيفًا تعلّق بقدرتك، أو مُبتلى لم يجد للفرج إِلَّا بابك مخرجا.

ناده بقلب واثق واجعل يقينك أنَّه سيستجيب، سيغيّر الأقدار من أَجلك، وسيفتح لك أبوابًا كُنت تظنها بسوء ظَنّك لن تفتح، فقط قل يا رب.

فدعاؤك سلاحك، والسّلاح بضاربه، فكُلما كان السّاعد الممسك بالسّلاح قويًا كان وقعه وضربه أشد، وإِن كان الدُّعاء من لسانٍ صالحٍ كانت الإجابة للدُّعاء أسرع.

ذكر الإمام ابن القيّم الجوزي " أنّ رجُلا صالحًا كان يعمل بالتّجارة، خرج عليه لصٌّ ذات يوم فقال ضع ما معك فإنّي قاتلك،

قال: فخذ ما معي واتركني،

قال: لا أمّا ما معك فهو لي ولست أريد إِلّا قتلك.

هُنا استشعر الرّجل أنّه لا مفر وأنّ حياته على وشك النّهاية فهذا اللِّصُّ معه خنجر وهو أعزل من السّلاح.

ولكن مهلًا فإِن معه سلاحًا ليس مع اللص، وحربة لا تُخطئ الهدف، فقال أما إِذا أبيت فدعني أُصلّ ركعات لِلَّه عزَّ وجلَّ،

قال: صلّي ما شئت،

فهكذا الصّالحون إِن وقع في بلاء هرع إِلى ربّه، فبطل تلك القصة لن يخسر فإِن قتل على يد اللّصّ، لقي ربّه وهو طائع، وإِن بقي على قيد الحياة فقد اِكتسب في يده سلاحًا لا يُقهر.

فكبر الرَّجل ووقف بين يدي ربّه، والغريب أنّه لم يتذكر من القُرآن

شيئًا حتّى سُورة الفاتحة التي كان يُكررها كُل صلاة نسيها، وكأن القُرآن قد مُحي من ذاكرته، ثُمَّ مرت لحظات إلى أن ألقى اللَّه على لسانه ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكشِفُ السُّوٓءَ ﴾، وكأنها مِفتاح الفرج من اللَّه، والمخرج للضّيق الذي يمُر به، والطَّريق للنّجاة من هذا الموقف الشديد، فلما انتهى من صلاته إلَّا وبفارس قد أقبل من فم الوادي وبيده حربة فرمى بها الرّجل، فلما أَخطأت فُؤادَه فَخر صريعًا فتعلّق بالفارس وقال: باللَّه من أنت؟

قال: أنا رسُول الذي يُجيب المُضطر إِذا دَعاه وَيكشف السُّوء.

فإِن كان دُعاؤك صادقًا، ولسانك في الدُّعاء خاشعًا، سخر اللَّه لك من خَلقه من يُحقّق لك دُعاءك، فقط ناده بلسان مُضطر مُستغيث، كغريق في بحرٍ شَاسع ينتظر يدًا تمتد إِليه، فمُضطر على باب اللَّه غير مخذُول.

﴿ فَاسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ ﴾

هل ضاقت بك الطُّرق؟

وأَحسست أنّ هذا الكون بأكمله وتلك الأرض بأجمعها لم تعد لك وطنًا؟

بدأ الجميع من حولك يبثُّون الشُّكوك إِلى قلبك، أنَّ دُعاءك لن يُستجاب، وأنّ ما تطلبُه أصبح جُزء من المستحيل، أو ضربًا من ضُروب الخيال، وقد نظروا إِليك نظرة شفقة قائلين يا بُني لا تُعلّق نفسك بوهم ولا تشغل نفسك بأَحلام تحتاج تحقيقها إِلى المعجزات، في زمن انتهت فيه المعجزات.

فابتسمت قائلا نعم رُبما اِنتهى زمن المعجزات، فلن يُبعث نَبي ولن يأتي اللَّه برسول ولكن اللَّه قريب، فالذي أجرى بيد الأنبياء الخوارق، وسير على أيديهم المعجزات، قادر على أن يحول المستحيل إِلى ممكن، والحلم إِلى واقع، فهي رُبّما مُستحيلة علي ولكن هيّنة عليه.

اِذهب إِلي اللَّه بأثقالك، واطرق بابه بأحمالك، فلا شيء يقف أمام قُدرته، ولا دُعاء يرد لمن قصد طريقه وسار إِليه لم يقصد أحدًا سواه ولم

تكن وجهته إِلَّا له.

تَكلّم معه بما تُريد، واشكو له أوجاعك، لا تخف من اختيارك للكلمات، ولا ترتجف من اختيارك للألفاظ، فهناك كلام لا يُقال إِلَّا مع اللَّه، وشكوى لا تكون إلَّا لِلَّه، كن مُتحفّظًا مُتكلّفًا مع الجميع ومع ربّك أظهر له كلّ ضعفٍ وكلَّ عجزٍ.

لا تمسك الدُّموع في حضرته، ولَا تكف عن البُكاء عند دُعائه، كن كسيدنا موسى حينما لقي الله ما ترك أمنية إلَّا وطلبها، وما ترك رجاءً إِلَّا وسأله، كان لقاؤه الأول مع ربّه، ولو خيِّر لما أنهى لقاءه مع اللَّه، كان يتمنى أن يمتد به الوقتُ لساعات أو أيّام، ولو أُتيحت له الفُرصة لتمنّى أن يقضي وقته كله في لقاء اللَّه.

لم يتكلّف في خطابه بل أطلق لسانه في الطّلب من اللَّه، كان لسانه به عقدة ولكنَّه مع الله كان لسانه أفصح لسان.

أتعلم أنت أيضا تستطيع أن تُخاطب ربّك تتبادل معه الحوار، هو يكلمك وينادي عليك، وأنت أيضًا تستطيع أن تتكلّم معه سبحانه، فقد جعل لك القرآن ليناديك، فلو تصفحت القرآن لوجدته يقُول لك سبحانه:﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾.

لا يحتاج لواسطة إِن أردت لقاءه فبابه مفتُوح، وإن أردت نداءه

فقد جعل لك الدُّعاء طريقا، وإِن أردت خطابه فقد جعل لك الصَّلاة سبيلا.

نحن جميعًا نرفع أيدينا إِلى اللَّه في اِنتظار كلمة واحدة " فاستجاب لَهُم "،نحن ننتظر تلك الرّسالة بفارغ الصَّبر، ونؤمن أنها لن تتأخّر، ونحن على يقين أنّ اللَّه أَكرم من أن يرُد يدًا رفعت إِليه.

قال النبي ﷺ " إِنَّ رَبكُم حيي كريم يَستحي أن يرفَع العبد يديه فيردهما صفرًا لَا خَير فيهمَا ".

في نِدائك للبشر إِذا كان الشَّخص بعيدًا عنك فأنت تحتاج إِلى أن ترفع صوتك وكُلما اِبتعد كُلما احتجت إِلى قُوة أَكبر في ندائك ليصل صوتك إِليه ولكن في ندائك مع اللَّه لن تحتاج إِلى صوتٍ قوي فلا يشغله عُلو صَوتك ولا يعنيه اِرتفاعه.

أدعه ولو همسًا، واسأله ولو خفيّة، فأنت لا تدعُو أَصمّا ولا غائبًا، بل تدعُو سميعًا بصيرًا، فعن أَبى مُوسى الأشعريّ قال: كُنَّا مع رَسُول اللَّه ﷺ في غَزاة فَجعلنا لَا نَصعدُ شَرفًا، وَلا نَعلُو شرفًا، وَلَا نَهبطُ وَاديًا إِلَّا رَفعنا أَصواتنا بِالتَّكبير.

قَال: فَدنا منَّا فقال: "يَا أَيُّها النَّاسُ، أربعُوا على أَنفُسكُم؛ فإِنَّكم لا تدعُون أَصمَّ وَلَا غائبًا، إِنَّما تدعُون سميعًا بصيرًا، إِنَّ الذي تدعُون

أقربُ إِلى أَحَدكُم مِن عُنُق راحلته ".

فمع اللَّه لن تهمك المسافات، لن يشغلك علو صَوتك من خفضه، فحينما تلجأ إِلى ربك تُدرك أن المسافات بين السَّمَاء والأَرض أقصر ممَّا تتخيّل، سَتُدرك في الوقت الذي ترفع فيه يدك، أنّه بدعوة صادقة في سجدة بليل ستصل بها للسَّمَاء السَّابعة، وأن صوتك الضعيف الذي لا يتجاوز سقف غرفتك قادر على اِختراق الغلاف الجوي.

رنت اليوم في مسامعي مقُولة أعجبتني فأحببت أن أُشاركك إياها "أن اللَّه ما أدار سفينتك جِهة اليمين فتأذيت وتألمت إِلَّا لأَنه علم أن اليسَار كان موتًا مُحتما"، فاستجابة دُعائك ليست بالضرورة أن يُعطيك اللَّه ما طلبت، فللإجابة أشكال يختار اللَّه لنا أجملها، أتركها لِلَّه وتذكر دائمًا الأُمور المتروكة لِلَّه مضمُونة.

فأخرج قلبك من عتمة التَّفكير، وأرحه من سجن الانتظار، اِملأ قلبك يقينًا وأزح عنه كل ما يُتعبه، القلق، الخوف، الحُزن، فَواللَّه قدرك سيأتيك يبحث عنك ولو كنت في شواهق الجبال أو في أَعماق البحار فاطمئن.

فإلى المتصالحين مع أنفُسهم، الثّابتون رغم ضجيج الحياة، ورنين السُّيوف في معاركهم.

سلام لتلك القُلوب الواثقة في اللَّه رغم كل تلك المحن، وسلاماً للمنشرحة صُدورهم رغم ثقل البلاء،وسلاماً لهؤلاء الذين جعلوا من الدُّعاء ملجأهم، واليقين حصنهم، هؤلاء الَّذين يضعُون أكفهم على قُلوبهم من حين لآخر ليطمئنوا تلك المُضغة المرتجفة من هول ما تُعانيه، لا تسمع لوجعهم أنينًا، ولا ترى لجروحهم دمًا، شكواهم لِلَّه، وسؤالهم لِلَّه، لا يعرفون الرَّاحة مهما طال عليهم الطريق، ولا اليأس رغم انهيار الأسباب، هم العُكاز لكلّ عاجز، والعصا لكلّ مُتكِئ، فطُوبى لمن صَبر واصطَبر، وَرضي فأرضَاه اللَّه، واستغنى فأغنَاه اللَّه..

سأخبرك شيئًا يُطمئنك أتعلم أنّ ربّك قد اِستجاب لكل دعوةٍ رفعت فيها يدك إِليه، فلم يضيع تلك التَّمتمة التي سمعها منك، لم يحرمك ما رجوت، ولم يَنس ما طلبت، فأرى في عينيك نظرة يعلوها اِندهاش وسؤال يدُور في ذهنك كيف ذلك لعلك تهزأ بي أو رُبما هي مُجرد كلمات بمثابة مُخدر من الكاتب شفقة منه على قرائه، فأقُول لك حسن ظنّك بربك، فهُو أرحم من أن يرى خاطر عبده مكسُورًا ولا يجبره، أو أن يرى دُموعًا قد سكبت بليل ولا يستجيب لدعاء صاحبها.

فأبشّرك أنّك ما دعوته بدعوة إِلَّا واستجاب لها، ولكن ربما أُخرت دعوتك ليعطيك منزله في الجنَّة.

فعن النبي ﷺ قال:" يدعو الله بالمؤمن يوم القيامة حتى يوقفه بين

يديه فيقول: عبدي إني أمرتك أن تدعوني ووعدتك أن أستجيب لك، فهل كنت تدعوني؟ فيقول: نعم يا رب، فيقول: أما إنك لم تدعني بدعوة إلا استجبت لك، فهل ليس دعوتني يوم كذا وكذا لغم نزل بك أن أفرج عنك ففرجت عنك؟ فيقول: نعم يا رب، فيقول: فإني عجلتها لك في الدنيا، ودعوتني يوم كذا وكذا لغم نزل بك أن أفرج عنك، فلم تر فرجا؟ قال: نعم يا رب، فيقول إني ادخرت لك بها في الجنة كذا وكذا ".

قال رسول الله ﷺ: " فلا يدع الله دعوة دعا بها عبده المؤمن إلا بين له إما أن يكون عجل له في الدنيا، وإما أن يكون ادخر له في الآخرة قال: فيقول المؤمن في ذلك المقام يا ليته لم يكن عجل له في شيء من دعائه.

فإيّاك أن يُقنعك الشَّيطان حينما تتأخر إجابة دعوتك أنّ اللَّه لا يأبه لسؤالك، ولا ينظر لدعائك، ولا يفتح بابه إلّا للصّادقين، ولا يقبل على أعتابه إلّا الطّائعين، فيبعث في قلبك الشّكوك ويتركك في حيرة وتردّد قد تصلَ لأنك تشك في الدُّعاء، أو تتخلّ عن سُؤال ربك، فقد فقدت الأمل في أن يأبه اللَّه لدعائك كيف لا وقد أثقلت أكتافك الذُّنوب، ومُلئت صحيفتك بالسّيّئات، ولكن واللَّه إنّ ربّك ليفرح بدعائك فلا تشغله ذُنوبك ولا يكترث لسيّئاتك ولو بلغت عنان السّماء.

كُلنا نعصي اللَّه يا فتى، نتعثر تارة، ونكبو تارة، نعرج إِليه بقليل

أعمالنا، ونستغفره من ذُنوبنا، فلا يمنعك الشَّيطان من السَّير إلى ربك، أقبل عليه ولو حبوًا، ولا تُطل في البعد عنه، وإيّاك أن تفقد الأمل فلحظة شك تُصيبك حينما تدعُو اللَّه أنّه لن يستجيب لك رُبما تكون هي سبب منع الله عنك فادع ربّك وأنت مُوقن أنّه سيستجيب، تحدّى بالدُّعاء المستحيل، فلك ربّ يقُول للشَّيء كُن فيكُون.

فعن أبى هريرة عن النبي ﷺ: " أدعو اللَّه وأنتم مُوقنون بالإجابة، واعلموا أنّ اللَّه لا يقبل دُعاء من قلبٍ غافل لَاهٍ ".

فاعزم على ربّك في دُعائك واطلب بطمع فلا تقل إنّ شئت فأعطني، ولكن أطلب وأنت واثق، فالله إنّه إن ألهمك الدُّعاء رزقك الإجابة.

فعن أنس قال: قال رَسُول اللَّه ﷺ: " إذا دعا أحدُكم فليعزم في الدُّعاء، ولا يقول: اللَّهمَّ إنّ شئت فأعطني، فَإن اللَّه لا مُستكره لَه ".

كن قنوعًا مع الجميع إلَا مع الله اطمع فيما تطلب فما أجمل أن تطمع في عطاء ربّك، فقد كان النبي ﷺ يُعلم أصحابه عند دُعاء اللَّه أن يضعوا لهم هدفًا دائمًا عليهم أن يطلبوا الأعلى لا الأدنى، والأكثر لا الأقل، فعن مُعاذ بن جبل قال: سمعت رَسُول اللَّه ﷺ يقول: " إنّ في الجنّة مائة درجة، كل درجة منها ما بين السَّمَاء والأرض، وأعلاها الفردوس، وعليها يكُون العرش، وهي أوسط شَيء في الجنَّة، ومنها تفجر أَنهار

الجنَّة، فإذا سألتم اللهَّ فاسألوه الفردوس ".

فكُن كآسية امرأة فرعون حينما طلبت بيتًا طلبته من اللهَّ

فلا تخف من أسبابٍ تُعطلك ولا تُفكّر في عوائق تقف بينك وبين ما تريد، كانت آسّية امرأة فِرعون تُعذّب ورغم كلِ ما كانت تمر به لم يمنعها من دُعاء اللهَّ، فثق أن اللهَّ قادر أن يُرتّب الأُمور من أجلك ليرضيك ليحقّق لك حُلمًا سعيت من أجله، أو سُؤالًا كُنت تُلح به، سيحلها اللهَّ بآخر طريقة تتوقعها، وسيرتب اللهَّ الأُمور بطريقة يتعجّب لها أصحاب الحيل.

كن كأم مُوسى تعرضت لموقف كفيل أن يُحطّم أيّ أحد يمر به، فقد ولدت طِفلها الصغير في عامٍ قد قرر فرعون أن يقتُل فيه أيّ مولود ذكر،

لتقف أمّ سيدنا مُوسَى في حيرة ماذا أفعل فأنّى لقوتي المحدودة أن تمنع جُند فِرعون أن يقتلوا وليدي الصغير.

في تِلك اللَّحظات علمت أمّ سيدنا مُوسَى أنّه لن يُخرجها من هذا الموقف إِلَّا أن تتوجه لربها، أن تسأل من لا يُعجزه شَيء فلن ترهبه سُلطة فِرعون ولن يشغله عدد جُنده، فأوحى اللهَّ إِليها بحلٍ لا يخطر على عقل أحد، أن تصنع لوليدها الصغير صُندوقا ثُمَّ ترمي به إِلى البحر!

لوهلة سَتقف عاجزًا أمام فَهم هذا الأمر ستهز رأسك مرّات عديدة

في مُحاولة فهم كيف يأمُر اللهَّ أن ترمي أم اِبنها الصغير في البحر بهذه البساطة وتلك السُّهولة، وكيف ستكُون نجاة طِفل في أن يُرمى في البحر؟

ولكن أمّ سيدنا مُوسَى كانت تعلم أَنه لن يحفظ وليدها اِلا ربها، وتعلم أنّ ربها سيرد لها مولودها الصغير وأنّ ما اختاره اللهَّ لها هو ما فيه النَّجاة.

فيُرمى سيّدنا مُوسَى في البحر ويشاء اللهَّ أن يقف الصندوق أمام بَيت آخر شَخص تتوقعه، عِند بيت الشَّخص الذي يدُور اِسمه في عقلك الآن، عِند بَيت فِرعون!

في تلك اللَّحظات يقذف اللهَّ محبّة سيّدنا مُوسى في قلب زوجة فرعون لتنطق قائلة ﴿ قُرَّتُ عَين لِّي وَلَكَ لَا تَقتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَو نَتَّخِذَهُ وَلَدا وَهُم لَا يَشعُرُونَ﴾.

فينجّي اللهَّ سيدنا مُوسى بآخر طريقة يتوقّعها أشد النَّاس ذكاء وأكثرهم عبقرية، فيصبح الخطر الذي كان يُداهمه بالأمس هو الأمن والأمان، فِرعون سيتولّى رعايته وسيقوم على حمايته.

ويظل اللهَّ يُبهرنا بتدبيره لِلأمور فكيف سيعود سيدنا مُوسى إِلى حضن أُمِّه؟ فأقُول لنفسي ولك لا تستعجل الأسئلة فربك قد دبّر لأمّ

مُوسى الأُمور ليرضيها ورتّب لها المقادير ليرد لها طفلها.

فيحرم اللَّه عليه المراضع فلا يقبل سيدنا مُوسى ثدي أيّ مُرضِعة مهما كانت، قال تعالى ﴿ وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾.

حينما تقرأ تلك الآية ستدرك أنّه ما حرمك اللَّه من شيء إِلَّا ليعطيك ما هو أعظم، وما منعك شيئا إِلَّا ليعطيك الأجمل.

فلا يشغلنك كيف سيستجيب اللَّه لدعائك، وكيف سيحقّق اللَّه لك أحلامك، فلا تندم على ما فاتك، ولا تحزن على ما فقدت، ولا تضيع وقتك في الانتظار، دع الأُمور تسير كما يُدبرها لك ربك، فكم هُو جميل أن يرى اللَّه منك مدى استسلامك لقضائه، ومدى رضاك بِأقداره، في كل الأُمور حتّى ولو كانت على عكس إرادتك.

جرب شعور الاستسلام لِلَّه وكن على يقين أنّ ما يحدث معك ما هو إِلَّا لحكمة تجهلها فإِن لم تُدركها اليوم ستفهمها غدًا.

فاستعذ بربك أن تستطيل بلاء نزل بك أو دُعاء تأخر عليك، أو تستبعد فرجًا فتيأس فواللَّه ما اِبتلاك إِلَّا لحكمة وما أخر عنك إِلَّا لحكمة.

أتعلم لقد أعد اللَّه لك من قبل خلقك مكانًا في الجنَّة، رُبما لَا تستطيع

بقليل من صلوات وبعض التَّسابيح أن تصل لهذه المنزلة، فينزل اللَّه عليك بلاء شديدًا يكُون بمثابة مصعد لمكانة أعلى في الجنَّة.

يقُولَ النبي ﷺ: " إِنّ العَبد إِذَا سَبقت لهُ مِن اللَّه مَنزلة لم يَبلُغها بِعمله، اِبتَلَاهُ اللَّه في جَسده، أَو في مَاله، أَو في وَلده، ثُمَّ صَبرِه عَلى ذَلك حَتّى يبلغه اَلمَنزلة اَلَّتي سَبقت له من اللَّه تعالى ".

لذلك فإن الله يُرسل لك البلاء هدية، والمنع منحة، والإجابة في تأخر الإجابة، والعوض في هيئة خذلان.

فرُبما اِبتلاك لِيغفر لك ذُنوبًا لم تكن لتغفر باستغفارك، ولم تكن لتمحى بطاعتك، فهون عليك ولا تكن قاسيًا على نفسك ففرج اللَّه قريب ولطفه أصبح على أعتابك.

ورُبما أخر عنك لأنه يريد منك أن تُبادر إِليه أنّ تقدم أول خُطوة في طريق رضاه، أن تُقلع عن ذنبٍ أَنت عليه مقيم، أن يرى مِنك اِستسلامًا لقضائه ورضا بِأقداره.

رُبما هُناك أُمنيات تأخرت ولكن قريبًا ستصرخ قائلا لقد حقَّق لي ربّي ما أُريد، لقد استجاب لدعواتي ولم يحرم قلبي من عطائه.

فمن منَّا لم يصب قلبه اليأس وضاق صدره، ولم ير لِلفرج مَخرجا، وفي تلك اللَّحظات التي أصابه فيها القُنوط وظنّ أنها قد اِستحكمت

جاء له اللَّه عزَّ وجلَّ ببارقة أمل، وكأنها مكافأة جاءت له عن كل ما مرّ به.

فلا تقسُو على قلبك فهُو أمانة بَين جنبيك، تِلك المضغة الرَّقيقة التي استودعك اللَّه إيّاها بين حناياك، لا تنهره ولا تُتعبه، فالقلوب تذبُل كما تذبُل أوراق الشَّجر.

لا تملأه ثُقوبًا ولا تزد أوجاعه وجعًا، ولا تكُن عدُوا لقلبك، كُلنا نُبتلى فلن تجد على وجه تِلك الدُّنيا من لم يحرم من شيء يُحبّه، أو يمنع من دعوة كانت هي الأحبَّ إلى قلبه.

الحياة جُلها كُسُور وسقطات لا ينجُو منها إلَّا ذاك الحكيم الذي أدار سفينته نحو ربه، فاركض نحو ربك واسأله صدرًا مُنشرحًا كصدر مُوسَى، ويقينًا كيقين يعقُوب، وقلبًا سليمًا كقلب الخليل إبراهيم.

لا أعلم لما تذكرت وأنا أُسجّل تلك الكلمات حديث النبي ﷺ وهو يقول " : انطلق ثلاثةُ نفر ممّن كانَ قَبلكُم حَتَّى آواهم المبيتُ إلَى غَار فدخلُوهُ، فانحدرَت صخْرةٌ من الجبلِ فسدَّت عَلَيهِم الغَارَ، فقالُوا: إنّهُ لا يُنجِيكُم مِن هَذه الصَّخرة إلاَّ أَن تَدعُوا الله تعالى بصالح أَعمَالكُم".

لم يتردَّدوا للَّحظات الثّلاثة جميعًا كانُوا على قَلب رجل واحد أنّه لن يُخرّجهم من هذا الموقف إلّا أن يتعلقوا باللَّه، فلو صرخوا لطلب

النَّجدة لن يسمعهم أحد ولو حاولوا دفع تِلك الصَّخرة لن تُحركها تِلك الأيادي الضَّعيفة.

هنا تُدرك أنّ لك ربّا يرعاك، إنّ لم تجد أحدًا بجوارك فهو دائمًا معك، وجوده يغنيك عن أَلف شخص، وسمعه يُغنيك عن إِنصات كل من حولك.

" قال رجل منهم : اللّهُم كان لي أبوان شَيخان كبيران، وكُنت لا أغبقُ قبلهما أَهلاً ولا مالاً فنأى بي طلب الشَّجر يَوماً فَلم أُرِح علَيهما حتَّى ناما فَحَلبت لهُما غبوقهما فَوجدتُهُما نائِمين، فَكَرهت أَن أُوقظهما وَأن أَغبق قَبلهما أَهلاً أَو مَالاً، فَلبثتُ وَالقدحُ على يَدي أَنتظر استيقاظَهُما حتّى برقَ الفَجر وَالصِّبيةُ يَتضاغَونَ عِند قدمي فَاستَيقظا فَشربا غبُوقهُما، اللَّهم إِن كُنت فَعلتُ ذَلك ابتِغاء وَجهك فَفرج عَنّا مَا نَحنُ فيه مِن هَذه الصَّخرة، فانفَرجَت شَيئاً لا يَستَطيعُونَ الخُرُوج مِنهُ." ، تذكر من رزق أبوين فقد رزق الدُّنيا بأجمعها إن أرضاهما نال الدُّنيا والآخرة، فلن يبخلا عليك بدعاء، ستجد بوجود والديك أنّ الطريق لربك قصير، وأن استجابة دعائك أسهل ممّا تتخيّل.

" قال الآخر: اللَّهمّ إِنَّه كانت لي اِبنَة عمٍّ كانت أحبَّ النَّاس إِلي وفي رواية: كُنت أُحبّها كأشد ما يُحب الرّجال النّساء ، فأردتهَا على نفسهَا فامتنعت مني حتَّى أَلَّمت بِها سنة من السنين فجاءتني فأعطيَّتها عِشرين

وَمائة دِينار على أن تخلي بيني وبين نفسهَا ففعلت ، حتّى إذا قدرت عليهَا ، وَفي رواية : فلمّا قعدت بَين رِجليهَا ، قَالت : اتَّق اللَّه ولَا تُفض الخاتم إلَّا بحقه ، فانصرفت عنها وَهي أحبَّ النَّاس إلي وتركت الذّهب اَلذي أَعطيتها ، اللَّهمَّ إن كُنت فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنّا ما نحن فيه، فانفرجت الصَّخرة غَير أنهُم لَا يستطيعون اَلخُروج منهَا ".

للحظات سَتدرك أن متّع الدُّنيَا زائلة وأنَّ إقلاعك عن ذنب أَنت عليه مُقيم، سيغيّر حياتك إلى الأفضل، كان خوف هذَا الرَّجل من ربه سببًا لانفراج الصَّخرة ولو قليلا ليرى بعضًا من ضوء الشَّمس، أو بالأحرى يجب أن أَقُول بعضًا من ضوء الفرج، فلولا لحظه اليقظة التي جاءت لِقلبه ومنعته من معصية ربّه لرُبما لم يجد ما يرفع به يده إلى اللَّه.

"وقال الثّالث: اللّهمّ إني اِستأجرت أجراء وأعطيّتهم أجرهم غير رجلٍ واحدٍ ترك الَّذي له وذهب فثمرت أجرة حتّى كثُرت منهُ اَلأَموال فجاءني بعد حين، فقال يَا عَبد اللَّه أدّ إلَيّ أجري.

فقُلت: كل ما ترى من أجرك: من اَلإبِل والبقر وَالغنم وَالرّقيق...

فقال: يا عَبد اللَّه لا تستهزئ بي،

فقُلت: لا أستّهزئ بكَ،

فأخذه كله فَاستاقه فلم يترُك مِنهُ شَيئًا،

اللّهم إِنّ كُنت فعلتُ ذلك ابِتغَاء وَجهك ففرج عنّا ما نَحنُ فيه، فانفرجت الصّخرةُ فخرجوا يَمشُون".

ستدرك بعد هذا الحديث أنّ كل فعل صالح في دُنياك كفيل بأن يُغيّر مجرى دعائك، قادر أن يُخرجك من أَشد الأَوقات صُعوبة، وأكثر المواقف ألمًا، فَحذاري أن تملّ من الدُّعاء، بل اُدعُ ربك واصبر على ما دعوت فهو لا يخفى عليه دُموع رجائك ولا إلحاحك في صلاتك ولكن صبر جَميل والله المُستعان.

* بدعاء نملة *

واحدة من أجمل وأصدق العبارات التي قرأتها " اِفعل الحسنة مهما اِستصغرتها فلا تدري أيّ حسنة تدخلك الجنَّة ".

فكذلك الدُّعاء لا تدري فلرُبمَا فعل خيّر، يَكُون سببًا في اِستجابة دُعَائك، فلا تستهين بقلائل اَلأُمور، ولا صغائرها، خبيئة صَالحة بينك وبين ربك، نيّة طيبة تُكنّها لإخوانك، وجه بشُوش تُشرق به على أهلك، كِتمانك لعيب، وسترك لذنب، جبر لِخاطر مُنكسر، مسحة على رأس يتيم، وصدقة سرٍّ في أَحضان ليل.

تذكر تلك المرأة التي سقت كلبًا ودخلت من أجله الجنَّة، وذاك الرَّجل الذي أَزال غُصن شوك من مُنتصف الطريق فَغفر اللَّه له.

لا أعلم لما تذكرت حديث النبي ﷺ حينما قال: "خرج سُليمان عليه السَّلام يَستسقِي، فرأى نملة مُستلقية على ظهرها، رافعة قوائمها إلى اَلسَّماء، تقُول: اللّهم إِنّا خَلق من خلقك، لَيس بنا غنى عن سُقياك، فقال: اِرجعُوا، فَقد سقيتُم بدعوة غَيركم "، حينما قرأت هذا الحديث للمرّة الأولى جلست يومًا بأكملها أقُول في نفسي كم أعطيت نملة من

البلاغة في الدُّعاء ما لم تُعطاه.

فمع كل الضُّر الذي أصابني في حياتي لم أجد ما يُواسيني إلّا بعض أعمال صالحة اِدّخرتها عند ربّي ليوم يَشتد عليّ فيه البلاء، لم أُدخل ذرّة من القُنوط لقلبي، كُنت أعلم أنّ اللَّه سيشُد من أزرى ويزيد من قُوتي، ولن يتركني تائها في صحرائي، وحيدًا في دُنياي دُون أن يُرسل إليّ من يُساعدني، كُنت أُسلّي نَفسي بدعائي، وأقبض على صَدري وأُقُول لن يخذُلك ولن يُضيعك، ولن ينسى دُعاءك، إنّ كُنت مُذنبا فهو عفو، وَإن كُنت عاصيًا فربُّك رحيم.

كُنت أَنتظر أي اِشاراتٍ أَو علاماتٍ تقُول لي لقد اِستجاب اللَّه لدُعائك، حتّى أدركت أنّ هُناك مَفاتيح للإِجابة، لا يَملكها إلَّا من اِستطاع اَلوصول إِليها سَجدةٌ في جَوف لَيلٍ، تسبيحة يعقبها حمد لِلَّهِ، بر لوالدين.

كُنت أَقرأُ اليوم في كتاب رياض الصَّالحين حتّى وقفت عِند حديث رَسُول اللَّه ﷺ لساعاتٍ، فقد كان سَيّدنا عُمر يَبحث لسنواتٍ وسنواتٍ عن رجُل بين أمداد أهل اليمَن، أُويس اِسمُهُ ومُراد قبيلته ما ترك عامًا إِلَّا وأسرع ليسأَل عن ذلك الرّجُل، وكأنّه يَبحثُ عن روحه الضائعة.

عام يَعقبه عام ومازال سيدنا عُمر ينتظر شَخصًا لا يعرفُ منه إِلَّا

اسمه حتّى أتى أُويس، وكانت فَرحةُ سيّدنَا عُمر لَا تُوصف فَقد وَجد أَخيرًا ضَالَّتهُ الّتي كان يَبحثُ عنها، فلما لقيهُ حتّى أقبل عليه يتأكد أنّه هو أُويس.

لا أعلم كم اِستشعرتُ عظم الفرحة التي كان فيها أميرُ اَلْمُؤمنين عُمر، فقال له: " أَنت أُويس بن عَامرٍ؟ " قَالَ: نَعم، قال: " مِن مُرادٍ، ثُمَّ مِن قَرنٍ؟ " قَالَ: نعم، قَالَ: " فَكانَ بك برصّ فبرّأت مِنهُ إِلّا مَوضِع درهَمٍ؟ " قَالَ: نعم، قَالَ: " لك وَالدة؟ " قَالَ: نَعم، قَالَ اسْتَغفر لِي؟

بدأت علامات الاِندهاش ترسم على وجه أُويس، ربما كان يحدث نفسه قائلاً من يستغفرُ لمن ومن يدعو لمن؟

لم يدع سيدنا عُمر الأسئلة تطُول في ذهن أُويس دُون جواب فقد بادر على الفور أن يُبشّره بقول رَسُول الله ﷺ: يأتي عليكُم أُويس بن عَامر مع أمداد أَهل اليمن، من مُراد، ثُمَّ مِن قرنٍ، كان به برصٍ فبرّأ منهُ إِلَّا موضع درهم، لهُ والده هُو بها بر، لو أقسم على اللَّه لأبرّه، فإِنَّ استطعت أن يَستغفرَ لك فَافعل ".

لم يكن أُويس يعلم أن مُكُوثه تحت أقدام أُمّه سيكون سبب في جعله مُستجاب الدُّعاء، فدائمًا المشاريع الخفية التي تكُون بينك وبين ربك تكُون سببًا في نجدتك من أَهوال دُنياك.

ففي الوقت الذي يهيم كل شَخص بعيدًا عن ربّه على وجهه، تقف أَنت مُنتصرًا بحسنة صَغيرة قد نسيتها ذاكرتك، ولكن اللهَّ لمِ ينس يدك التي اِنتشلت بها غريقًا من أَمواج البلاء، ومصباحك الذي أَنرته لسائرٍ في الدُّروب المظلمة، وقوتك التي اِستند عليها من خارت قُوتُه، فاجعلْ من قلبك نبراسًا مُضيئًا مُمتلِئا بِالإيمان، تبحث عن الأعمال الصَّالحة كأُم فقدت وليدها.

فسلامًا على من لم يمنعه بلاؤه من أن يظلَّ ثابتًا على إِيمانه، وذكره لربه يَسبق مَسأَلته، ويقينه يغلب يأسه.

لذلك فانا دائمًا أحدث نفسي عن اللهَّ، عن جوده وكرمه، عن حلمِه ورحمته، عن كيف سيتكفّل ربّي بجميع تِلك الأحزان التي في قلبي، سيرى كم ذرفت من دُمُوع على وجنتي، وسيرحم ما تبقَّى من فُتات قلبي، كُنت دائمًا أتقرب إِليه بِصالح أعمالي وأقول لعل بها يقبلني، فأنا الصَّبور يا رب على بلائك، وأنا الشَّاكر على عطائك، أُدرك أنّك ما حبست عنّي دعوة اِلا لخير، وما أبعدت عنّي ما كُنت أرجُو إِلَّا لخير، تُدرك كم يعتصر قلبي، وكم أمسكت خافقِي في اللَّيالي السَّابقة مئات بل آلاف المرَّات صارخًا أن يا رب قلبي، فلطفًا من عِندك ينزل السَّكينة عليّ ويزيل خوفي وقلقِي.

* لن يغلب عسر يسرين *

دائمًا ما أُخبر قلبي أنّ يومًا ما سيستجيب اللَّه لدعائي ومهما طال بلائي فيومًا ما سيغادرني، أُدرك أنّ البلاء ينزل ليجعلنا نهرع إلى اللَّه، بعد أن اِختلطت علينا الطُّرق، وزلّت الأقدام، وصرنا مُتخبّطين لا نُدرك أيّ طريق نسلك، ولا إلى أيّ واد نذهب، فيأتي البلاء يُصحّح كل تلك الأخطاء، وينزع عن قُوتك الفُتور.

فسلامًا لمن أرهقهم البلاء، ولم يرفعوا شكواهم إِلَّا لِلَّه،

وسلامًا لِلفارّين من هَول الدُّنيا إِلى أَبواب رَبهم،

وللذَّاهبين من ضِيق الحياة إِلى سِعة رحمة اللَّه،

وللمتوسّمين في ربهم خيرًا رغم كل الأضرار التي أصابتهم،

وسلامًا على من تجاوز صعابه بالاتكاء على دُعائه،

فاللهم جبرًا من كل كسرٍ، وعافية لكل بلاء.

فمع اِقترابك من اللَّه ستجد حلولا لكل أزماتك، ما عجزت عَنه أنت سيحقّقه من أجلك، فأسرع نَحو مِحرابه، ستجده يمدك بِقوة تغنّيك عن

أَلف كتف، وستشرق شَمسُك بالقرب منه، ولن يطول بلاء بجواره، ولن تتأخّر دعوة عند بابه، جرّب شُعُور القُرب منه ولو لدقائق، وأدعه وثق أنّ دُعاءك سيفعلها هذه المرة.

فأنا أُؤمن أنّ تلك الأيَّام ستمضي، وأنّ هذا العُسر لن يدُوم، وأنّ اللَّه لا يدع عبده تطُول عليه الشَّدائد، وأدرك أنّ كل تِلك الأحزان عابرة، وأنّ اللَّه ما أبكاني اليوم إِلَّا ليضحكني غدًا، هو ابتلاني لِيطهرني، لِيهذّبني، لِيرحمني، أو رُبما قصرت في دعائيّ فابتلاني لِيلهج لِساني باسمه، فإيّاك أن تظُن بربك سُوء، أو أن يخطُر لبالك أنّ ربك أراد بك شرًّا.

أعلم أنها قد ضاقت بك ولكن صدقني فرجه قريب ورحمته أقرب، فما هي إِلَّا رسائل من الرَّحمن، يُرسلها لمن يُحبهم من عباده الغرض منها أن تدعو ربك ولا تملّ من سُؤاله قال تعالى ﴿ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ ، فعند عودتك لله سترى أنّ ربك قد أعدّ لك كثيرًا من المفاجآت، أحلامك الضَّائعة ستجدها عِنده، دعواتك المتأخّرة ستجدها على بابه، فقط اذهب إليه، وقل له يا رب أنا عائد.. تائب.. راجع، أنا الضَّالُّ فاهدني، والتَّائه فدلني، والعاصي فأرشدني، جئتك اللَّيلة هاربًا من أوجاعي، مُطاردا من هُمومي، لا أثق إِلَّا بك، ولا أحتمي الا بأعتابك، فلم يكن الطريق معي مُمهدا، ولم يكن الوصول سهلا، الصّعاب تُزاحمني طريقِي وتقطع عليّ سُبلي، فأنا عبدك المتخبِّط

في خُطاه، المكسور فُؤاده، اشكو لك ضعفي، وقلَّة حيلتي، فأنت أَكرم من أعطى وأسرع من أجاب.

جهز بين طَيَّات دُعائك، ثِقة لِلّٰه وحُسن ظنّ به، واعبر صراط ابتلائك بِدعائك وامتطي نيتك الطَّيّبة لتعبر من الأزمات فعلى نِيتكم تُرزقون.

فأنا دائمًا ما أتذكر في وقت أزماتي الطفل الذي فقد بصره وهو ما زال طفلًا صغيرًا لم يكد يُواجه الحياة حتّى أُخذت منه عيناه، فجلست أُمّه الصَّالحة تبكي وتصلّي، لم تقطع يقينها بالله، رفعت بصرها إِلى السَّمَاء وقالت يا رب ولدي، فنامت ليلة لترى في منامها خليل الرَّحمن إِبراهيم يقُول لها " يا هذه، قد ردَّ اللَّه على اِبنك بصره لكثرة دُعائك "، اِستيقظت لترى اِبنها قد عادت له عيناه، لِيكبر الغُلام الذي كان بالأمس أعمى يتلمّس الجدران لِيصير الإمام البخاري صاحب أشهر كتاب بعد كتاب اللَّه سُبحانه.

واحدة من أهمّ الدُّروس التي تعلمتها في حياتي أنّ القُنوط لَيس من خصال المؤمنين ولا من صفات الصَّالحين، لا أُغادر اَلباب ولو كان مُغلقًا وأنتظر لحظة اِنفراج ولو كانت صَغيرة، وأتحيّن أيّ فُرصة من أجل أن أدعُو ربّي، وأقول لنفسي اللَّه أكبر من أوجاعك، الله أكبر من ألمك، الله أكبر من همومك، ولا أدع للشّيطان فُرصة لِيفسد علاقتي مع ربّي.

أتذكر ليلة جلست فيها وحيدًا أُعاتب أقداري، وأقُول لنفسي لما كل هذا هل أستحق كل تِلك المتاعب، ولماذا كُلما أحببت شيئًا غادرني؟ ولماذا كُلما دعوت ربّي دعوة لا تأتي؟

وحين هدأت وعاد إلي عقلي الذي أعرفه، وتأملت التَّفاصيل الصَّغيرة التي غفلت عنها أخذت أُعاتب نفسي مُجددًا لكن في تلك المرة أُعاتبها على أنّي كم كنت أحمقا حينما ظننت لِوهلة أنّ أقدار اللَّه التي حلت بي ليست في صَالحي، وكم كنت غبيًّا حينما فكرت للحظات أنّ اِختياراتي أفضل من اِختيارات اللَّه سُبحانه.

كانت أقل الأشياء تفرحني، وأبسطها تغيير من مزاجي السَّيئ، أُؤمن بالإشارات، وأصدّق في الرَّسائل الخفية، أستبشر حينما أقرأ ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًا ﴾، وأفرح حينما أتلو ﴿ لَا تَدري لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحدِثُ بَعدَ ذَٰلِكَ أمرا ﴾، ويميل قلبي حينما أَسمَع ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّن ﴾، ويرتاح خاطري حينما أقرأ ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكرَهُواْ شَيئا وَهُوَ خَير لَّكُم وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيئا وَهُوَ شَر لَّكُم ﴾ وأتفاءل حينما أتلو ﴿ وَٱللَّهُ يَعلَمُ وَأَنتُم لَا تَعلَمُونَ ﴾ ، وأنْتَظر سماع ﴿ ذَٰلِكَ تَأوِيلُ مَا لَم تَسطِع عَّلَيهِ صَبرا ﴾ .

* اِحزم متاعك *

اِحزم متاعك وجهز رِحالك لأننا سننطلق في رحلة عنوانها قوله تعالى: ﴿ فَاستَجَبنَا لَهُ ﴾.

سنمر على مصر، وسنعبر بجوار العراق، وسنطوف بالقرب من مكَّة، سترى في هذه الرحلة المريض، والمظلوم، والعقيم، والمسجون، كلهم لجئوا إِلى الله الجميع أَلقى بهمومه على أعتاب ربه.

لم يفقدوا الأمل يومًا، ولم يتسلل اليأس لقلوبهم لدقائق، كانُوا يعلمون أنَّ لهم ربًا يُدبّر أمرهم من السَّماء إِلى الأرض، يرى ما يمرون به ويسمع دُعاءهم ويعلم ما يُؤذيهم، ويدفع عنهم ما يضُّرهم.

كانت الطُّمأنينة سِلاحهم، والدُّعاء حربتهم التي يقفون بها في وجه الظُّروف والابتلاءات التي يمرون بها.

فامض يا فتى مطمئنا، وأقبل ولا تخف، ألق في طريقك وأنت مقبل على ربك، كل تلك الأحمال التي أثقلت كتفك وجعلت منك بطيء الحركة بالكاد تستطيع حمل جسدك، همومك، ألمك، أحزانك، ألق بها جميعا.

ستعلم حينها أنّ اِستجابة دُعائك تكمن في عودتك لِلَّه وأن تفر منه إِليه، اِحزم حقائبك لتعود إِليه، ولا تشغل نفسك بقلة زادك، أو طول طريقك فأعظم رحلة يقطعها العبد حينما يعُود إِلى ربه.

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوب فَانْتَصِر ﴾

هل سمعت يومًا عن سلاحٍ لا يحتاج إلى أيّ نوع من أنواع المواد التي تُساعد على الانفجار، مثل اليورانيوم تلك المادَّة الأساسيَّة التي تعتمد عليها الأسلحة النَّووية، أو البارود أو الديناميت؟

كان أول سلاح فتّاك اِستعمله إنسان على وجه الأرض، قوته التَّدمريّة لا تُوصف، لن تُصدّق إن قلت لك إن بسببه قد هلك أغلب سُكان الكُرة الأرضيّة وتغيرت به ملامح الكوكب.

رُبما الآن تُحاول أن تسترجع ذكرياتك وتفتش في أرجاء التَّاريخ، لمحاولة معرفة هذا السلاح.

أهو كالقنبلة الذرية التي سقطت على مدينتي هيروشيما وناغازاكي، أو ربما هو نوع من أنواع الأوبئة كالإنفلونزا الإسبانية، ولكن دعني أزد من حيرتك وأن أخبرك أن هذا السّلاح لم يكن سوى كلمات بسيطة خرجت من لسان نبي.

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوب فَانتَصر ﴾، كانت تلك دعوة مظلوم نادى بها نبي، كانت كفيلة لأن يقلب الله موازين الدُّنيا بأجمعها من أجله، وأن

يُغيّر اللَّه مجرى الكون ودفّة الأقدار، لصرخة مظلُومٍ ونداء نبي.

كانت تلك الصَّرخة هي المتنفَّس لسيّدنا نُوح بعد سنوات من ظُلم قومه له، نادى في قومه سنوات تكفي أن يتعاقب فيها أجيال بأعمار أُمتنا.

فقد لبث يدعو قومه أَلف سنة إلَّا خمسين عامًا ليلا ونهارًا، وما كان على لِسانه إلَّا ﴿ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ ، واختصر الله تلك المسيرة الشاقة في قوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ﴾ .

كان يشكّو لربه ما يمر به من إِرهاقٍ ومن تعبٍ، ومن حُزنٍ على حال قومه، فليس من العيب أن تشكو لربك ضعفك، ولا أن تبيّن له عجزك، فمع اللَّه أظهر كل شيء يضر بِقلبك، عجزك، انِكسارك، ضعفك، هزائمك، مرضك، وثق أنها ستتحول من عجزٍ لقدرة، ومن انِكسارٍ لِجبر، ومن ضعفٍ لقوة، ومن هزِيمةٍ لنصر، ومن مرضٍ لشفاء.

دعاهم باللَّيل والنَّهار وكأنّه كُلما دعاهم اِزدادوا كُفرًا، فقد وضعوا أصابعهم في آذانهم لكيلا يستمعوا لندائه، ووضعوا ثيابهم على رُؤوسهم حتّى لا تقع عُيونهم عليه.

فما ترك طريقة في الدَّعوة إلى الله إلَّا لجأ إِليها، فإِن كان الصَّواب في الدَّعوة جهرًا فقد فعل، وإِن كان في الدَّعوة سِرًّا فقد فعل، ما ترك طريقًا

إِلَّا وسلكه ولا بابا إِلَّا وطرقه.

لم يترك سيدُنا نوح حلّا إِلَّا لجأ إِليه، لقد حبَّب إِليهم ربهم بكلِ طريقة يتخيلها العقل، فإِن آمنوا بالله فتح عليهم بركاتٍ من السَّماء والأرض.

فلم يُؤمنوا وازدادوا تمسُّكًا بأصنامهم، فلجأ سَيدُنا نُوح إِلى أن يلفت تلك الأنظار التي أعماها الكُفر أن يروا قُدرة الله في كونه.

أَلف سنة إِلَّا خمسين عامًا، ليلا ونهارًا كان يدعو قومه لعبادة الله، لم ييأس ولم يكلَّ ولم يملّ ولم ير أنَّ الله قد غضب عليه فقد كفر به أقرب النَّاس إِلى قلبه، تخلت عنه زوجته وكفر به ولده.

فيشاء الله بعد كل تلك السَّنوات من الدَّعوة إِليه، ولم يكن آمن مع سيدنا نوح إِلَّا قليل، يأمر الله نبيّه أن يبني سفينة لتكوّن نجاة له ومن معه إِذا نزل العذاب، بعد ألف سنة إِلَّا خمسين عامًا، جاء فرج الله على عبده نوح فعلى قدر الصبر يأتي الفرج.

كانت دعوة سيدنا نُوح ﴿أَنِّي مَغلُوب فَانتَصِر﴾ كفيلة لأن يحُول الله الأرض إِلى مُحيطٍ هائج يبتلع كل ما يقف في طَريقه ، لن يعصمك من تلك الأجواء جبل ولن يحميك حصن.

فسماء فتحت أبوابها بماء مُنهمر، وأرض فجرت عُيونها، وبحار أَصبحت أمواجها هائجة غاضبة، طُوفان لا يقف في وجهه شيء إِلَّا

هلك، فيا تُرى أيّ قلبٍ دعا بتلك الدَّعوة حتّى يسخر اللَّه من أَجله كل أولئك الجُنود.

كانت دعوة سيّدنا نُوح التي خرجت من قلب مظلُوم، فتح لها اللَّه أبواب السَّماء وقال لها وعزتي وجلالي لأنصرنكِ ولو بعد حين، فاحذّر من دعوة مظلُوم فرُبما نمت أنت وقام هُو يُناجي ربّه بهمسات لا يسمعها إلَّا خالقه وبدُعاء نبي أُغرقت من أجل دعوته الأرض.

لذلك كلما قرأتُ سُورة نُوح أيقنت أنّ الأزمات مهما طالت فلابدّ أن تُفرج، وأن بعد العُسر لابدَّ من يُسرٍ يتبعه، الأيّام دُول يا فتى ودوام الحال من المحال، يُصبح الإنسان فقيرًا ويمسي غنيّا.

لذلك تذكر لن يطول عليك همٌّ، ولن يُخلّد عليك بلاء، وتعلم أن تُخبّئ خلف همّك حسن ظنّ باللَّه، وخلف بلائك يقين أنّ الفرج من ربك قريب.

أَكاد أجزم أنّ أطيب أوقات المناجاة، وأشدها قُربًا من اللَّه تلك اللَّحظات التي تنهمر فيها دُموع شخصٍ اِجتمع على ظُلمه أهل الأرض فضجّت من أجل نُصرته أهل السَّمَاء.

فما أنّ أرخى اللَّيل سُدوله، وأظلمت الأجواء من حوله، وغابت تلك النُّجوم من السَّماء، حتّى قام هو مُناجِيًا ربّه يشكُو له عبدًا من

عبيده.

فإلى من ظُلم وقهر في دُنياه، وإلى كل من ذاق طعم الظُّلم ولم يجد له نصيرًا سوى ربّه، وإلى كل من عانى من قسوة النَّاس من حوله، إليك بدعوة لا يرد قاصدها، ولا يخيّب من لجأ إليها، دعا بها من قبلك نبي فنصر،

فقط ضع يدك على قلبك وَردَّد ﴿ أَنِّي مَغلُوب فَانتَصِر ﴾،

فعن ابن عبّاس رضى الله عَنهُما أَنَّ النبي ﷺ – بعث معاذا إلى اليمن وقال له: " اتَّق دعوة المظلوم، فإنها ليس بينهَا وبين اللَّه حِجَاب "، لذلك احذر أن يشكوك أحد إلى الله.

* منك تعلمت *

تعلمتُ من نبي اللَّه نُوح أن تأخّر الفرج لا يعني أن اللَّه قد نساك أو تخلّى عنك، وأن الله عندما يفتح باب فرجه، فلن يقدر أحد على إغلاقه.

منك تعلمت أن كل ما على الأرض جُند لِلَّه، وأن النّعمة من الممكن أن تتحول لنقمة، وأن ما قد يكون سببًا من أسباب الحياة قد يتحول إِلى موتٍ فتاكٍ يُدمّر كل شيء يمر عليه.

منك تعلمت أن الدُّعاء هو وُجهة كل مظلُوم وباب كل مخذول، فإِن أعد الظَّالم لك سرية كان الدُّعاء لك جيشًا.

منك تعلمت أنّه ليس المهم في الدُّعاء عدد حُروفه ولا كثرة كلماته بل الأهم القلب الذي هتف بها.

منك تعلمت أن الخيانة رُبمَا تأتي من أقرب النَّاس إليك، اِبتلاك اللَّه بزوجتك وولدك فبدلا من أن يكونوا عونًا لك على دعوتك صَاروا جُزء من أعدائك.

منك تعلمت أن كل ما على الأرض من بشرٍ لا يكفِي لرد دعوة

مظلوم.

منك تعلمت ألا أيأس من تكرار المحاولة وألا أرمي بِسيفي عندما أرى بوادر الهزيمة فليس الإخفاق مقياسًا للنَّجاح بل ما أَخفقت فيه اليوم وضع عليك علامات وترك عليك نُدوبًا سَتكُون سببًا لِتحقيقك لنجاحٍ مُبهرٍ.

﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾

في لحظات الِابتلاء وعند تأخر الإجابة يأتيك الشَّيطان ليشوش علاقتك مع ربك، ليمنعك من رفع يدك إِلى الله، وليبعث التَّردد إِلى قلبك، والشَّك إِلى وجدانك، أن الدُّعَاء بلا فائدة وأن ربك يبغضك لذلك صبَّ عليك البلاء صبا، فأقول لك أزل كل تلك الشُّكوك، وطمئن قلبك المتردّد، فَاللَّه لم يمنعنك دُعاءك لبغضه لك، فما رفعت يدك إِليه إِلّا ولاحت الإجابة في الأُفق.

كان سيدنا إِبراهيم من أحب الأنبياء إِلى اللَّه، ورغم ذلك كان يخرج من ابتلاء إِلى اِبتلاء، ومن اِختبار إِلى اِختبار، منذ أن اشتدَّ عُوده وبلغ رشده وتوالت عليه الامتحانات الإِلهيَّة.

ورغم ذلك لم يتأخر يومًا في سُؤال ربّه، فما نزل به بلاء إِلّا وكان يحدثُ نفسه أنّ ما يمر به هو تمامُ الخير.

خرج إِلى الدُّنيا ليمر بامتحان لو مرَّ به الكثير منَّا لرُبما لم يُوفّق في اِجتيازه، كان عليه أن يدعو قومه لترك عبادة الأصنام، ولكن لم تكن الصُّعوبة تكمن في دعوته لقومه، كان الامتحان مُتمثّلا في أن أشدَّ

المعارضين له كان والده فكيف سيدعوه إِلى ترك ما يُؤمن به، وفي نفس الوقت يُحافظ على مقام الأدب الذي يفصل بين الأب وابنه.

كانت دعوته لأبيه من لسانٍ خائفٍ قلق عليه أن يُصيبه عذاب ربّه،

أن يرى والده يوم القيامة يدخل النَّار، وكأن لسان حاله يقُول يا أبت لا تخيب ظنّي بك، ولا تفجعني فيك، فإنّي لا أُحب أن أراك تلقّى في جحيم جهنَّم.

لعل أقرب كلمة لقلب الأب هي كلمة أبي حاول بها سيدنا إبراهيم هدم السور الذي يمنعه من دخول قلب والده، ولكن بلا فائدة!

فقد جاءه الخذلان من أقرب النَّاس إليه، من الشَّخص الذي كان يظُن أنّه رُبما سيكون الدّاعم له، كان ينتظِر أن يشُد عضده لا أن يكُون هُو من يكسر له ظهره.

ورغم أنّه تخلّى عنه في أشدّ الأوقات احتياجًا له بعد الله إِلا أنّه لم ينس أدبه مع أبيه، ولم يدعُ عليه بل دعا له.

﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴾، ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴾ ،﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴾، ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴾، ﴿ قَالَ

سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴾.

يا أبت، يا أبت، يا أبت، يا أبت، سأستغفر لَك.

أيّ قلب اِمتلك سيدنا إبراهيم وأيّ عزيمة تلك التي كانت بحوزته، البعض يفقد الأمل بعد مُحاولة أو اِثنتين، إِلَّا سيدنا إِبراهيم حِينما يفقد الأمل يتجه للدُّعاء.

﴿ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ ﴾ ، لعلَّ أَصدق ما قرأتُ في تلك الآية أن للحُب عدّة أبواب وأعظمها الدُّعاء لمن تُحب.

كان اِبتلاء سيّدنا إِبراهيم على هيئة خذلان من أقرب النَّاس له.

فلكيلا تُؤلمك الحقيقة عليك دائمًا توقّع الطَّعنة ممّن هم بجوارك، والكسر ممّن انتظرت منهم الجبر.

فالخذلان مُر يا فتى ولكنّه يُزيل تلك الأقنعة المزيّفة ممّن كُنت تضع فيهم ثقة لا حُدُود لها، ويمحي الغُبار عن تلك الوُجوه لترى كذب اِبتساماتهم وزيف ملامحهم، يُعلمك ألا ترفع من سقف طُموحاتك في الأشخاص حتّى لا يخر فوق رأسك.

اِنتقل سيدنا إبراهيم لجولته الثانية ليكون ثائرًا على واقعه، رافعًا راية الإنكار لعبادة الأَصنام، فالفتى الذي كان والده بالأمس يعبد الأصنام صار نبيًا من أولي العزم.

لذلك أنا أكررها دائمًا على مسامعك لا تخدعك البدايات، آسية كانت زوجة فرعون وفي النهاية صارت من أفضل نساء العالمين، وفي المقابل زوجتي أنبياء الله نوح ولوط كانتا تحت عبدين صالحين وفي النهاية مثواهم النّار.

كان سيدنا إِبراهيم يُريد أن يُثبت لقومه بشتى الطُرق أن ما يعبدونه لا ينفع ولا يضر، فكيف سولت لهم عقولهم أن يعبدوا ما يصنعون.

لكن بعض الحقائق صادمة، فالكثير من العقول غير جاهزة للتغيير، فالبعض يتشبث بِأفكاره الخاطئة بأسنانه وأظفاره، لذلك كان على سيدنا إِبراهيم أن يهزم كبرياؤهم بتدمير آلهتهم، فلو كانوا آلهة سيدافعون عن أَنفسهم فكيف لإله لا يقدر عن دفع الأذى عن نفسه.

فلما خلا بأصنامهم جعلها جذاذًا إلا كبيرًا لهم، فلما رجعوا من عيدهم كانت المفاجأة فقد أُبيدت كل أصنامهم!

أخذت الأسئلة تدور في عقولهم من فعل هذا؟ ومن قد يقدم على مثل هذا الفعل؟

كانت الأخبار قد تناقلت أن سيدنا إِبراهيم هو من قام بتحطيم أصنامهم، وصار الأمر حديثًا تتناقله الألسنة.

قال تعالى ﴿ سَمِعنَا فَتى يَذكُرُهُم يُقَالُ لَهُ إِبرٰهِيمُ ﴾ ، كان سيدنا

إِبراهيم عند ربه خليلًا نبيا وكان عند الناس مجرد فتى، فلا يهمك مكانتك عند الخلق فرب مجهول في الأرض معلوم في السماء.

كان الِابتلاء صديقًا وفيًا لسيدنا إبراهيم، ورغم ذلك لم يفقد يومًا ثقته بربه، ولم يكف لسانه عن ذكر نعم مولاه، تخلّى عنه والده وهو مقدم على حتفه ونهايته، ورغم ذلك لم يتزعزع إيمانه قيد شبر بالله.

فنار أُضرمت كفيلة بأن تحرق جيشًا بأكمله من أجل نبي ثار على مجموعة من الأحجار، ليرمى في نار قادرة على إنهاء حياته، فلما ألقوه ما زاد عن قوله "حسبي الله ونعم الوكيل".

كلمات يجب أن ندونها في عقولنا أن بعض الأشخاص لا يقبل النقد ولا يحب المواجهة، جاء لهم سيدنا إِبراهيم بجميع الحُجج والبراهين، التي تُثبت صدق موقفه، ومع ذلك أجمعوا على قتله وإخماد ثورته، في محاولة بائسة لإسكات صوت الحق.

فتذكر دائما إن أجتمع عليك سكان الأرض فلا تخف طالما أن معك رب السّماء، فالنّار التي لا يُعرف عنها إلا الإحراق أصبحت بردًا وسلامًا، وتحولت النّار من ألسنة لهب قاتلة إلى دفء يحمي سيدنا إبراهيم، وجدار واق بينه وبين أعدائه، حتى قيل ما وجدت نار على الأرض إلا وأطفأت حماية لإبراهيم.

فاجعل حسبي الله ونعم الوكيل درعك القوى، وحصنك المنيع، اِلتجأ لها عند حاجتك، رددها عند ظلمك، قالها سيدنا إبراهيم فنجاه الله بها من النيران.

وتذكر لله جُنود يُسخرها لنصرة عبيده، أسرعت كل الحيوانات من أجل نجدة سيدنا إبراهيم حتى لا تمسه ألسنة النّار، في الوقت الذي وقف فيه قومه يشاهدون ألسنة الجحيم، فلم يحرك أحد منهم ساكنًا على أمل أن يروا النار تحرق سيدنا إبراهيم.

نار ارتفعت إلى عنان السماء من أجل نبي ما كان ذنبه إلا أنه رفض واقعه والرضوخ لتلك الأفكار الباطلة، والسجود لمجموعة من الأحجار أو الركوع لصنم من خشب.

نار تكفي لأن تحرق جيشًا بأكمله كان الله قادرًا أن يمحوها بريح، أو أن يطفؤوها بماء، لكن الله أراد أن يعلمنا درسًا أن النار جند من جنود الله، فتلك النار المستعرة التي لا يمكن لبشرٍ أن يقترب منها دون أن يُصاب بأذى كانت بردًا وسلامًا على سيدنا إبراهيم.

تمر الأعوام على سيدنا إبراهيم وقد تجاوز الثمانين من عمره، وينظر فيرى أثر الشيب في رأسه، فلم يُرزق بولد وقد اِنقطعت عنه أسباب الإنجاب فهذه زوجته قد أصابها الكبر، وقد بلغ هو من العمر أرذله،

ولكن رغم اِنقطاع الأسباب، كانت ثقته بربه أكبر، ويقينه بالله أعظم، فجاءته الملائكة تبشره بإسحاق نبيًا من الصالحين.

تسمع السيدة سارة تلك الكلمات التي أصابتها بالذهول، فكيف ستلد وقد اِنقطع عنها دم الحيض وحتى إن لم ينقطع فقد كبر زوجها ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾.

ما مررت يومًا بهذه الآية وكانت لي عند الله حاجة، إلا وقلت في نفسي الله أرحم من أن يرى عبدًا علّق خاطره بشيء ويحرمه منه.

فاذهب إلى الله برجائك وناد يا أرحم الراحمين الأمر لك، والملجأ إليك ما رددت طالبًا عن بابك، ولا حرمت سائلًا من عطائك، الأمر أمرك والجند طوعك، رضي يا رب قلبًا قد نفذت منه أسبابه، وقلت منه حيله، فأنت أرحم من أن تُرفع إليك يدًا وتردهما صفرا".

ويُرزق سيدنا إبراهيم بمولود من زوجته هاجر ويسمى إسماعيل، وكأن البيت بأكمله قد كُتب عليهم أن يروا اِبتلاءات عاصرة، تفطر الفؤاد وتقصم القلوب، فيأمر الله نبيه أن يأخذ زوجته وطفلها الصغير ليسكنهم بمكة!

لم تكن مكة كما تعلمها الآن مدينة تشع أنوارًا من جميع جوانبها، بل كانت مجرد صحراء قاحلة، حتى الوحوش لم تتخذها وطنا.

تنظر السيدة هاجر للمكان الذي من المفترض أن يكون هو بيتها الجديد وعلامات الاِندهاش على وجهها كيف سنعيش هنا يا إبراهيم؟

وكيف ستتركننا في مكان لا يوجد به أنيس ولا جليس حتى الوحوش قد أبت أن تعيش فيه؟

فلم يرد عليها، فجعلت تنادي بأعلى صوتها يا إبراهيم الله أمرك بهذا؟

فقال: نعم!

قالت: إذا اِذهب فلن يضيعنا الله.

هنا علمت السيدة هاجر أنها خرجت من رحمة المخلوق إلى رحمة الخالق، ومن رعاية إبراهيم إلى عناية رب إبراهيم.

نحن نحتاج إلى أن نحدث نفوسنا كلما حلت بنا أزمة أن نقول" لن يضيعنا الله " أن نثق في اِختيارات الله، وأن نوقن أن اختياره دائماً هو الخير لنا، فما أعطانا إلا لكرمه وما منعنا إلا لرحمته.

حدث نفسك أن الله لن يضيعها، لن يتركها، لن يخذلها، إن فارقك حبيب فالله معك، وإن تخلّى عنك صديق فالله بجوارك، لن يُضيعك ولن ينساك.

كان سيدنا إبراهيم يعلم أن خطر الجوع والعطش سيداهم زوجته وولده، فلم يجد حلًا إلا أن يدعو ربه، وأن يفوض أمره لله، وأن يترك رعايتهم على الله فنادى ربه قائلا: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ ﴾.

تذكر الدعاء له طرق لا يحفظها إلا من عرفها، فالدعاء ليس كروما كل الطُرق تؤدي إليها بل هو كمكة وأهل مكة أدرى بشعابها.

ستمر بتجارب تعلمك الدعاء، فكل اِبتلاء مر عليك وضع عليك ندوبًا وخدوشًا، علمتك كيف تلجأ إلى ربك وكيف تبكي في حضرته وكيف تحتمي به.

فكل الابتلاءات التي مرّ بها سيدنا إبراهيم جعلت منه جبلًا أشمًا، صامدًا، شامخًا لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف، ما مر ببتلاء إلا وكان يهرع إلى ربه بالدعاء، لأنه كان يعلم أن الحل دائمًا يكمن عند الله.

فإذا اِبتلاك ربك فلغاية هو يحب أن يستعملك يقوي ظهرك، ويشد من عزمك، فابتسم فربك يرى فيك قوة لا يراها في غيرك، فقادة الجيوش لا يختاروا لأوائل الصفوف إلا أقوى الجند، فلا تسأل الله خفة الحمل ولكن اسأله قوة الظهر.

على الجانب الآخر كانت السيدة هاجر تُصارع وطفلها شبح الموت،

فقد نفذ منها الماء والتمر وازداد الرعب في قلبها، وأصبحت ترتجف فمولودها بدأ يتلبط من الجوع، فجعلت تهرول بين الصفا والمروة، تصرخ لعلها تجد من يغيثها، وتنادي لعلها تجد من يسمعها.

حتى سمعت صوتًا فأخذت تنادي أغث إن كان عندك غواث، فإذا بجبريل يفجر زمزم لتنقلب الصحراء إلى روضة من رياض الجنة.

فثق أن الله قادر على أن يخرجك من حطام ظروفك المتعبة إلى راحة لا يعقبها شقاء، وأن الله سيفجر لك نورًا من وسط تلك العتمة يضيء لك به ظلمات ليلك، وكن على ثقة أنه ألطف من أن يطيل حزنًا على قلبك، وأكرم من أن يراك تعاني ولا يمد لك يد المساعدة، وأرحم من أن يراك متعلقًا بأمنية ولا يحققها لك.

قد تتخيل أن الأمر قد انتهى هنا، وأن سيدنا إبراهيم قد آن له أن يستريح بعد عناء السنوات الماضية، لكن دعني أخبرك أن الأمر لم ينته عند هذا الحد، ولم يكن الِابتلاء الأخير لنبي الله إبراهيم، فقد كانت كل الِابتلاءات السابقة مجرد تجهيز لأعظم بلاءٍ قد يُصاب به بشر، وأصعب محنة قد يمر بها إنسان، فلم يكد ولده الصغير أن يبلغ معه السعي، إلا وجاء له الأمر من الله أن يذبحه!

للحظات ستقف عاجزًا أمام فهم هذا الأمر ستقول أيّ قلب بشري

سيقدم على هذا الفعل؟

وأيّ أب سيمتلك الجرأة على ذبح اِبنه بيده؟

ألم يرى الله قلب إبراهيم وهو يتمزق على اِبنه؟

ألم يرى الله بُكاء هاجر ونحيبها على ولدها؟

وإن كان سيذبح فلما ولد من الأساس؟

لم يُفكر سيدنا إبراهيم في سؤال واحد من كل تلك الأسئلة بل أسرع لولده قائلا: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ .

لم يستخدم سيدُنا إبراهيم على اِبنه سُلطته الأبوية فلم يُحب أن يجبره بل ترك له أمر الاِختيار، أراد أن يرى منه الاستسلام لأمر الله، فلن تصل له إلا بعد أن تسلم أمرك إليه.

كان هذا هو المعنى الذي أراد سيدُنا إبراهيم أن يعلمه لابنه إسماعيل، معنى الِاستسلام لله، أراد أن يُعطيه خبرة السنوات الماضية والِابتلاءات السابقة، أن أقدار الله دائما وأبدا تصب في صالحك.

فالله دائما ما يختار لك الأفضل، يبعدك عن المخاطر ويأخذ بيدك إلى شاطئ النجاة.

رُزق سيدنا إبراهيم بولده بعد سنوات من الانتظار وأعوام من التمني وكأي أب رُزق بابن بعد سنواتٍ من الحرمان أحبه حبًا شًديدًا وتعلق قلبه به فغار الحبيب على خليله أن يكون في قلبه موضعًا لغيره فأمره بذبحه.

فإن أخذ الله منك ما تحب فإنما يُريد الله ألا يجعل في قلبك مكانة لغيره.

كما يقول الإمام ابن القيم " ولما سأل إبراهيم عليه السلام الولد فأعطيه، وتعلق حبه بقلبه، فأخذ منه شعبة، غار الحبيب على خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره، فأمره بذبحه، وكان الأمر في المنام ليكون نفاذ المأمور به أعظم اِبتلاء وامتحانا، ولم يكن المقصود ذبح الولد، ولكن المقصود ذبحه من قلبه؛ ليخلص القلب للرب، فلما بادر الخليل عليه الصلاة والسلام إلى الامتثال، وقدم محبة الله على محبة ولده، حصل المقصود فرفع الذبح، وفدي بذبح عظيم ".

وجاء اليوم المنشود اليوم الذي يُجهز فيه إسماعيل ليُذبح، كان مستعدًا لهذه اللحظة وكأنه ليس ذاهبًا ليلقى حتفه بل كأنه يزف إلى الجنة.

كان في الثالثة عشرة من عمره ولكن كان يتكلم بلسان نبي يوصي أباه بكلمات لمست قلبي ، فيقول ابن عباس : " أضجعه على جبينه على

الأرض والجبهة بين الجبينين ، فقال له اِبنه الذي أراد ذبحه : يا أبت اشدد رباطي حتى لا أضطرب، واكفف عني ثيابك حتى لا ينتضح عليها من دمي شيء فينقص أجري وتراه أمي فتحزن، واشحذ شفرتك، وأسرع مر السكين على حلقي ليكون أهون علي فإن الموت شديد، وإذا أتيت أمي فاقرأ عليها السلام مني، وإن رأيت أن ترد قميصي على أمي فافعل، فإنه عسى أن يكون أسلى لها عني، فقال له إبراهيم عليه السلام : نعم العون أنت يا بني على أمر الله، ففعل إبراهيم ما أمر به ابنه، ثم أقبل عليه فقبله وقد ربطه " .

ويمسك سيدنا إبراهيم السكين في لحظة تدمع فيها العيون، وتتسارع فيها دقات القلوب، كانت بيده قوة لا يملكها أحد،

كانت تُنادي السماء والأرض يا رب اِرحم ضعف هذا الشيخ وشيبته والطف بقلبه، فهو عبدك وخليلك، وارحم غلامًا بارًا بأبيه مستسلمًا لقضائك.

كانت السكين تمر على حلقوم إسماعيل مرارًا وتكرارًا بلا فائدة،

ربما للحظات ستتذكر مشهد إلقاء سيدنا إبراهيم في النار، ورغم ذلك لم يصبه أذى ولم يقربه سوء، وذلك لأن الله قال للنار ﴿ كُونِي بَردا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ كذلك كانت السكين بردًا وسلامًا على إسماعيل.

ستقف عاجزًا أمام قوة سيدنا إبراهيم وأمام طاعته لربه، وأمام تلك القوة الإيمانية المرعبة، فكيف تمكن من أن يُمسك سكينًا ويمررها على رقبة ولده.

يقول الإمام ابن القيم " ليس العجب من أمر الخليل بذبح الولد إنما العجب من مباشرة الذبح بيده، ولولا الِاستغراق في حب الأمر.. لما هان مثل هذا المأمور فلذلك جعلت آثارها مثابة للقلوب.. تحن إليها أعظم من حنين الطيور إلى أوكارها ".

فجاء الفرج من الله بذبح عظيم، كان عتقًا لإسماعيل ومكافأة لاستسلام إبراهيم، فلم يكن البلاء الذي مر به لغضبٍ من ربه بل ليكرمه.

فإن كنت تمر بابتلاء فاعلم أنه مجرد تهذيب من الله، فما لا تفعله المجاهدة يفعله الِابتلاء، وما لا تقدر النفس على فعله يأتي البلاء ليغيره بداخلك ليحولك لشخصٍ آخر، ويرفع تلك المعنويات التي أحبطها الزمان، يجعلك تعود لربك، تلتمس كل طريقٍ إليه، وتسلك كل فجٍ للعودة إليه.

* منك تعلمت *

تعلمت من الخليل أن الدعاء حربتك التي لا تصد ودرعك الذي لا يخترقه سيف ففي الوقت الذي انتظر فيه قومك خروجك من النّار جسدًا محترقّا، كانت "حسبي الله ونعم الوكيل " التي لجأت بها لربك سببًا أن تتحول نار مرعبة إلى برد وسلام.

مِنك تعلمت أن لا ملجأ من الله إلا إليه، وقد يهون كل شيء الأب، الولد، الزوجة في سبيل رضاء الله عز وجل.

مِنك تعلمت أن أقدار الله نافذة ولو اجتمع عليك أهل السماء والأرض، فإن أراد الله نجاتك، فلن يعجزه شيء لا نار تهزمه، ولا جند يضعفه.

مِنك تعلمت أن الطلب من الله وحده هو باب الفرج، ألقوك قومك في النّار فلم تطلب نجدة من ملك، ولم تستعن ببشر بل سألت الله، واستعنت بالله، فنجاك الله.

مِنك تعلمت أن كل ما في الأرض طوع لأمر الله، جمعوا لك الحطب وأشعلوا من اجلك النار، كان الله قادرًا أن يُطفئها بمطر، أو يمحوها

بريح لكن الله عطل طبيعتها وغير قوتها.

مِنك تعلمت أن القلوب لله فلا تعلقها بغيره، فإن تعلقت بأحد ابتلاك الله لا لبغض ولا لكرهٍ بل تهذيب وإصلاح، فالله يغار على قلب عبده، فكان أمر الذبح لإبراهيم ليس لِابنه بل للتعلق الذي كان في قلبه.

مِنك تعلمت أن التضحية مهما عظمت لا تهم ما دامت لله.

مِنك تعلمت أن بعد الاختبار يفتح الله العطايا، تخلّى عنك والدك، واجتمع عليك قومك فوقف الله بجوارك، وكنت تطلب ولدًا فرزقك الله باثنين، وكانت مكة صحراء، أصبحت بدعوتك جنة من جنان الأرض.

﴿ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾

دائمًا ما كنت أسمع في الأعمال الدرامية عن مُصطلح يُسمّى البطولة المُشتركة، فقد لعب أكثر من شخص الدّور الأساسي في العرض، قد يُؤثر فيك دور مُمثّل بِعينه وقد يصل بك الدَّرجة لِلبكاء، وربما قد تملّ يدك من التَّصفيق، بسبب قوة الأداء الذي يقدمه الممثل.

ولكن سُرعان ما ستدرك أنّ هؤلاء مُجرد مُؤدون، وأنّ ما يقومون به لا علاقة له بالواقع بل هو مُجرد نسج من خيال المُؤلف.

لكن أنا أَخذ بيدك الآن لتشاهد دور بُطولة مُشتركة في الدُّعاء، وفي التَّوجُّه إِلى اللَّه لُمواجهة البلاء.

كانت قِصّتهم أحسن القصص، وحكايتهم عِبرة لأولي الألباب.

رُبما تُحاول الآن التَّخمين عن أيّ شخصٍ أَتحدث، أو رُبما يجب أن أَقُول عن أيّ سُورة في القُرآن سأكتب.

فها أنَا أُزيح من على ملابسك تُراب اليأس بسورة يُوسف، وأريحك من التَّعب كمسافر أرهقه الطريق وآن له أن يستريح، أو كمحارب قد

أنهى للتوي معركته وآن له أن يخلع درعه ويمسح سيفه، ليس من دم أعدائه بل من أوجاع الحياة، فبسُورة يُوسُف ستشيع بها أوجاعك، وستهيل التُّراب على يأسك، وسترثي بها أيامك الثّقال.

بدأت سُورة يُوسُف بداية تشد لها الأسماع والقلوب، فأنا من المحبّين لهذه السُّورة بل لا أُبالغ إن قُلت أنّي من العاشقين لحروفها، فما كان يسألني أحد ما أكثر سُورة في القُرآن قُربًا إلى قلبك إلَّا ووجدت لساني يسبقني قائلا سُورة يُوسُف.

فأبطال تلك السُّورة مُلوك في الرّضا بقضاء اللَّه، فلو وقفت للحظات لعرفت أنّه ليس بالغريب عليهم، فجدهم سيّدنا إبراهيم.

تبدأ القصة بغلام صغير يستيقظ فرحًا ليذهب إلى أبيه بوجهٍ كالقمر ليقول: يا أَبَتِ لقد رأيت رُؤيا تسر القلب ولن يكُون هُناك من يعلم تفسيرها إلّا أَنت،

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ﴾.

ما إن سمع سيدنا يعقُوب رُؤيا ولده الصغير إلّا وقال له بلسان قلق ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾

كانت رُؤياه مُبشرة فبرغم أَنّي لا أُجيد تفسير الأحلام إِلّا أَنّي رأيتُ من رُؤياه أن مُستقبلا مُبهِرًا ينتظره.

لكن كان لسيّدنا يعقُوب رأي آخر، لقد رأى ناقُوس البلاء يُوشك أن يدُق، وباب المحن يُوشك أن يُفتح، كان يستشعر خطرًا قريبًا من غُلامه الصغير، والأصعب أن الخطر الذي يُداهمه سيكُون من أقرب النَّاس إِليه.

على الجانب الآخر كان إِخوة يُوسُف قد دار حديث بينهم، كيف يتخلصون من يُوسُف؟ فقد أخذ من قلب أَبيهم مكانًا لم يأخُذه أحد مِنهم.

وصلت الغيرة بهم لدرجة جعلتهم يُفكّرون في قتل أخيهم!

لقد سول لهم الشَّيطان أنّه رُبما لو مات يُوسُف سيخلُ لهم قلب أبيهم، لم تأخذهم رأفة بأخيهم الصغير، ولم يحن عليه أحد، إلى أن قال أكثرهم رحمة بيوسف، ﴿ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾، فأكثرهم رحمة وأشدهم حنانًا كان رافضًا لفكرة القتل، مؤيدًا لحرمان شيخ من ولده.

كانت تلك هي خطة القتل الرحيم لقلب أبيهم، أن يحرموا يعقوب من ولده، وأن يُشرد غُلام صغير أو رُبما يلقى حتفه.

كانت رحمة اللَّه ترعى يُوسُف من صغره فبرغم أن هذا الاقتراح الذي صدر من صوت هادئ من بين إخوته ﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾، إلّا أنه دفع القتل عن روح أخيه دُون قصد .

لقد تستر إخوة يُوسُف عن أَعين أبيهم ليضعوا تلك الخطة لتخلص من غُلام صغير، لم يعلموا أن هُناك من سمع همسهم وسجّل تدبيرهم في سُورة تحمل اِسم أخيهم.

لم يلبثوا كثيرًا حتّى ذهبوا ليطلبوا من سيدنا يعقُوب أن يترُك لهم يُوسُف، ليذهب معهم أثناء رعيهم يرتع ويلعب، ولكنّه رفض مرارًا وتكرارا، فقد كان قلبه يُحدثه أنه رُبما ستكُون المرة الأخيرة التي يرى فيها ولده، لقد كان خائفًا أن يترُكوه وحيدًا، أو أن يفترسه ذئب ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحزُنُنِيٓ أَن تَذهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأكُلَهُ ٱلذِّئبُ وَأَنتُم عَنهُ غَٰفِلُونَ ﴾ .

لذلك اِحترس لكل كلمة تتحدث بها، فرُبما تُعطي بيدك خِنجرًا لقاتلك وأنت لا تدري.

فلمّا ذهبُوا به وأجمعوا على إِلقائه في غيابة بئر مُوحش، فإن لم تقتله أيديهم فرُبما ماء البئر كفيلة بإغراقه، كان إِلقاؤه في البئر هُرُوبًا من تعذيب الضّمير وألا تلاحقهم آثَار دمه.

فلمّا برزوا به إلى البرية أظهروا له حقد قُلوبهم وضغينة نُفوسهم، أخذوا يضربونه، فيستغيث بأحدهم فما يزداد به إلّا ضربًا، كان يبحث فيهم عن قلب رحيم فلم يجد، وعن فُؤاد يرق له فلم ير فيهم إلّا الكُره والغلظة، فأخذ يستغيث وينادي يا أبتاه، حتّى نزعوا عنه قميصه وأنزلوه في البئر.

أخذ يُناديهم راجيًا أن يُعيدوا له قميصه ليتوارى به فأبوا، حاول الخُروج من ماء البئر حتّى وصل إلى صخرة فتعلق بها .

في تلك اللَّحظات يلتفت يمينًا ويسارًا لا يجد إلَّا ظُلمات بئرٍ مُوحشٍ تدب الرُّعب في القُلوب وتمحي أيّ أثر للشّجاعة.

وفي لحظات الارتجاف والقلق يجد يدًا تمسك بكتفه، ووحيًا من اللَّه يُطمئنه أن كل هذا سيمر وأن مرارة الأيّام لن تدُوم قال تعالى: ﴿ وَأَوحَينَآ إِلَيهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمرِهِم هَٰذَا وَهُم لَا يَشعُرُونَ ﴾.

ثق دائمًا أن الابتلاء ما هو إلَا سحابة صيف وحتمًا ستنقشع، وأن طُوفان اليأس لا ينجُو منه إلَّا من تعلق بمراكب الدُّعاء، فاستعن على إغلاق ثُقُوب سدك بندائك لربك.

رجعوا لأبيهم بدموع مُصطنعة، مُمسكين بقميص عليه آثار دم مُزيفة، ليلصقوا التُّهمة بحيوان بريء، تستَّروا باللَّيل حتّى لا يرى والدهم

زيف الحُزن في ملامحهم، لِينظر الوالد إِلى قميص ولده وعليه آثار اَلدَّم! والدُّموع تكاد تنهمر من عينيه ولكن مهلا، القميص ما زال سليماً فلو اِفترسه ذئب لمزقه، والدم الملطخ يكاد يصرخ أن ولدك ما قتل، كانت تلك بارقة أمل لسيّدنا يعقُوب، أن ولده مازال على قيد الحياة، وخيبة أمل في أولاده فقد غدروا بأخيهم، وأقسموا كذبًا أنّه قد مات.

وأنت تقرأ هذه السطور تظُن لوهلة أنّي أُحدثك عن إحدى أساطير العرب الثَّلاثة الغُول، والعنقاء، والخل الوفي، من صُعُوبة تخيل أن هُناك بشرا قد يمر بتلك المواقف، فمن الصّعب جدًّا على قلب أيّ إِنسان أن يرى حديث شخصٍ أمامه يُقسّم بالصّدق وهُو يعلم في قرارة نفسه أنّه يكذب.

كان هذا حال سيدنا يعقُوب كان يعلم كذب أولاده، ولكن أَين المفر من أقدار اللَّه.

من هنا يرفع سَيدنا يعقُوب راية الدُّعاء، ويبسّط يده إِلى ربّه لِيحفظ ولده الغائب، وأن يجبر قلبه المكلوم.

طوال السَّنوات المقبلة ستجد لسان سيدنا يعقُوب يلهج بدعاءٍ واحدٍ ﴿ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ .

كان على سيدنا يعقُوب أن يتعايش مع حُزنه، وأن يُطيب جُروحه

بشكواه لربه وأن يستعين على البلاء بالصبر.

فقف أمام أحزانك بدعاء ربّك، وامنعها من التَّغلغل إلى قلبك، فالحزن أضرّ ما يكُون بقلب الإنسان، وأحب ما يكُون للشَّيطان أن يرى مُؤمنا حزينًا.

على الجانب الآخر كان سيدنا يُوسُف مُحاصرًا بظلمات بئره وظلُمات اللَّيل، كان مُؤنسه الوحيد يقينه بأن اللَّه بجواره، فيشاء اللَّه أن تمر بجوار البئر قافلة!

لا أعلم أمرت تلك القافلة من باب الصُّدفة أم أن اللَّه أرسلها من أجل يُوسُف. أَجدك الآن تسترجعني وتقُول لي ألم تقل في صفحاتك الأُولى إنّه لا يُوجد مُصادفة وإنما هي أقدار اللَّه؟

فأقُول لك أَنت مُحق، ولما لا فاللَّه ألطف من أن يتركُه في بئرٍ مُوحشٍ دون أن يُرسل له من ينتشله من غيابات جبه.

جاءت قافلة، أم جاء الفرج على يُوسُف، ليدلى لهو بدلوٍ كان بمثابة طوق النّجاة الذي يرمى لمن يُجاهد الغرق في بحر شاسعٍ.

لم يكن سيدنا يُوسُف يعلم أن الدّلو الذي أُدلي له كان جواب وداعه لأيّام الحُرية وباب دُخوله إلى حياة الرّقّ والعبوديَّة، ليباع بثمنٍ بخسٍ، فليس كل النَّاس يُدركون قيمة السّلعة التي بين أيديهم.

فإن خسرك شخص في حياتك وباعك بأرخص الأثمان فلا تحزن، ولا تبتئس، ولا تُقلل من قدرك فرُبما هو لم يُحسّن تقديرك، كان بيدهم نبي لم يعرفوا قيمته وبيع بدراهم معدودة، ليشتريه عزيز مصر، ليقول لزوجته ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾.

ما أشبه كلمة العزيز بكلام آسّية امرأة فرعون لما رأت سيِّدنا مُوسَى ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرعَونَ قُرَّتُ عَينٍ لِّي وَلَك لَا تَقتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَو نَتَّخِذَهُ وَلَدا وَهُم لَا يَشعُرُونَ ﴾ .

كلمة أكرمت مثوى نبي، وَأُخرى حمت نبيًّا من القتل وما بين الكلمتين كانت رعاية اللَّه تحفظهما.

أَمر العزيز زوجته أن تُكرمه ولا تُعامله مُعاملة العبيد والرّقِّ، رأى في وجهه أن مثله يُكرم لا يُهان، لقد كانت كلمات العزيز بمثابة الاعتذار لسيّدنا يُوسُف عما فعله إِخوته، وعن كل ما مر به.

فلا تعلم من أين يجبر اللَّه خاطرك، ومن أَين يأتيك علاج جُروحك، فإذا أراد اللَّه بعبدٍ خيرًا سخر له كل من حوله ليشدوا من أزره.

فلما بلغ سيّدنا يُوسُف أشده كان يُجهز لواحدة من أعظم العطايا، وهبة من أجمل الهبات، فهو على باب الدَّعوة إلى اللَّه، أن يسير في درب والده وليتم اللَّه نعمته عليه كما أتمّها على أبويه من قبله، فلمّا اِشتدَّ عُوده

أُعطي حُكمًا وعلمًا.

فقد يُؤخّر اللَّه بعض العطايا لوقتٍ مُعين، رُبما لأنك لم تجهز لها بعد، فلا تحزن من تأخير دعوة دعوت بها ربك، فرُبما لم تبلغ بعد أشدك.

ومع قُوة الظهر يشتد الحمل ويزداد البلاء صُعُوبة، والاختبارات تزداد قُوة وكأن يُوسُف جاء إلى هذه الأرض ليبتلى، لتراوده امرأة العزيز عن نفسه فقد هُيئت له وغلَّقت أبوابها.

ولكن مازال قلب يُوسُف يقظًا، فما وجدت ردًّا على عرضها المغري لأيّ نفس بشريّة ضعيفة ﴿ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ ﴾ إلَّا وأسرع يُوسُف قائلا دُون تَردَّد، فلم يأخُذ بضعُ ثوانٍ للتَّفكير ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ ﴾ .

لم ينس ما فعله العزيز معه، ولم يكُن ناكرًا للجميل، أو مُتغافلًا عن إكرامه وتربيته، ليسرع نحو الباب في سباق، أحدهما يبحث عن بابٍ يُبعده عن أدخنة المعصية، والأخرى تمسك بقميصه لتمزّقه أو بالأحرى لتصنع بيدها دليلًا ملمُوسا على براءة يُوسُف.

لتفاجئ بمجيء زوجها ليتحول يُوسُف في لحظات إلى جاني بدلا من أن يكُون هُو المجني عليه ﴿ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ .

وكعادة أيّ مظلُوم سيصرخ للدّفاع عن نفسه، ﴿ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي ﴾ ولكن مُلابسات الحادث تدينه، فقميصه المشقوق أكبر دليل علَى أنه المعتدي، لينطلق صوت هادئ وكأنّه مُحام قد وكل للدّفاع عن يُوسُف قائلا ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾.

كان ثوبه المشقوق زورق نجاته، وكأن قدر يُوسُف قد عُلق بقميصه، فُضح به كذب إخوته وأُصدر به حُكم براءته.

فلا تعلم كيف يمنع اللَّه عنك سُوء أقداره على هيئة اِبتلاء قد لا ترى من بوادره إلّا الشَّر، لكن في باطنه خيرًا كثيرًا تجهله، كإخفاق في دراستك، أو ضياع لفرصة عمل، أو رفض في زواج، أو حرمان من الإنجاب.

يمنعك سُبحانه ما تريد لأن نظرك مقصُور على ما تراه عيناك وما يُدركه عقلك، فأنت لا تعلم لأيّ درجة ربك رحيم بك، يمنعك ما تشاء ليعطيك ما يشاء، يمنعك فُرصة عملٍ ليعطيك عملا أعلى وأفضل، ويحرمك من زوجة كنت تُريدها ليكرمك بأخرى صالحة تليق بقلبك، ويؤخّر عنك الإنجاب ليرزقك في نهاية المطاف بولد خير زكاة وأقرب رحما.

تذكر دائمًا أنّ الخيرة فيما اِختاره اللَّه وأنّه لو اطَّلعنا الغيب لاخترنا الواقع، وبالنّسبة ليوسف كان قميصه المُمزق بادرة شرٍّ، لكن في الحقيقة كان عيّن الخير.

همس العزيز لزوجته وليوسف ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾" .

رُبما لكيلا يتسرب الخبر إِلى أرجاء المدينة، ولكن لم يمض وقت طويل حتّى أَصبح الأمر يُتلى على جميع المسامع، وتتناقله الألسنة ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ " .

فما كان من امرأة العزيز إلّا وأسرعت لتأتي بهم ﴿وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّ﴾ كانت تُريد أن يرى النّسوة جماله فما أصدق من السَّماع إلّا المشاهدة .

﴿فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾ ، علم يُوسُف أنّه في مأزق لا يُخرجه منه إلّا ربه، فأبواب المعصية تحوطه من جميع الجهات، وامرأة العزيز تتوعده إِن لم يخضع لأمرّها سيسجن وسيحرم نعمة الحُرية التي لا يُفرط فيها عاقل.

ولكن كان اِعتقاد امرأة العزيز خاطئا ويقينها بأنّ يُوسُف سوف

يُساوم على إيمانه، أو أن يعصي ربه مُقابل كبحٍ لحريته.

في تلك اللَّحظات كان الهُدوء يسُود المكان، كان يُوسُف قد اتَّجه بنداء لربه أن يصرف عنه كيدهنَّ، فالسجن أحب إليه من معصية ربّه وحبسه في سبيل طاعة الله هي أعظم حُريّة ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ .

يقينه بربه كان طريقًا سريعًا لاستجابة دُعائه، فلا يعوقه حواجز، ولا توقفه عوائق، كان السّجن ليوسف نجاة، فكما نُجّي من القتل بسجن الجُب، نجاه ربُّه من ظُلمات المعصية بحوائط السُّجون.

لم يكن السَّجان يعلم أنّ المحبوس نبي، وأنّ جُدران سجنه لن تُعيقه عن الدَّعوة إلى ربّه فما لبث إلَّا وبدأ في المهمة التي من أجلها خُلق، ورغم قِلة العدد فقد دخل معه السِّجن فتيان، إلّا أنّه لم يدخر جُهدًا في الدَّعوة لربه قال تَعالَى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾، ليرى كُل منهما رُؤيا فيطلبان من يُوسُف أن يُفسرها لهم!

مُنذ زمن كان يُوسُف هُو من يبحث عن مُفسرٍ لرؤياه، واليوم أصبح هو من يؤول الأحاديث ويفسر الرُّؤى.

فلا تعلم كيف يُغيّر اللَّه المشاهد ويبدّل اللَّه الأحوال، ويرتّب اللَّه

الأقدار، فيجعل من السجِين حُرًّا، ومن المستحيل مُمكنا.

وشاء اللهُ عزَّ وجلَّ أن يُطلق سراح أحدهما، وهو على أبواب الخُروج قال له يُوسُف: ﴿ ٱذكُرنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ ٱلشَّيْطَانُ ذِكرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجنِ بِضعَ سِنِينَ ﴾.

سُطُور يجب أن نُدونها في صحيفتنا أنّ لا نثق إلا بالله، ولا نطلُب شيئًا إلّا من الله، فلا تقل ﴿ ٱذكُرنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ لأحد، علق آمالك على أستار بيته، وأنّخ رحالك على أعتابه، فمتى خذلك حتّى تسأل سواه، ومتى تركك حتّى تبحث عن غيره.

لبثّ يُوسُف في السّجنِ لسنواتٍ، رُبما هي رسالة من الله فحواها لقد كُنت معك في الجُب حينما ألقوك إخوتك، وكُنت معك حينما اِتّهمتك اِمرأة العزيز، ونجّيتك من مكرها بدخولك السّجن، وأنا وحدي القادر على أن أخرجك مِنه، فمتى تخلّيت عنك حتّى تسأل غيرى.

فعن مالك بن دِينار قال: لما قال يُوسُف للساقي: ﴿ ٱذكُرنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ ، قيل : يا يُوسُف، اِتخذت من دوني وكيلا ؟ لأطيلن حبسك!

فبكى يُوسُف وقال: يا ربّ، أنسي قلبي كثرة البلوى.

ليالٍ طويلة مرت على يوسف وحيدًا في ظلماته، محاصرًا بحوائط سجنه، لم يشح بنظره مرة إلى السماء ويقول لماذا أنا يا رب؟

فتذكر جيِّدًا ستمُر عليك ليال من ثقلها ستقسم أَنها لن تمُر، وكرُوب من شدَّتها ستقسم أَنها لن تُفرج، وهُموم مُتعبة ستقسم أَنها لن تزُول، و في لحظة يأتي فرج اللَّه، فإذا بِالهموم تزُول، وبالكروب تُفرج، وبالليالِ الثَّقيلة تمُر، وبالنِّسبة ليوسف كانت رُؤيا الملك، هي صكُّ العتق، ومفتاح الفرج، فبعد سنوات يرى الملك رُؤيا كانت بمثابة مفتاحٍ وضع في باب زنزانة يُوسُف ليخرجه من حبسه.

ليتذكر الساقي بعد سنواتٍ من النِّسيان كلمات رفيق سجنه أن يذكره عند الملك فيسرع قائلا: أنا آتيك بتأويل رُؤياك التي عجز عن تفسيرها الملأ من حولك، فيسرع السَّاقي إلى زنزانة يُوسُف قائلا: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفتِنَا فِي سَبعِ بَقَرَٰت سِمَانٍ يَأكُلُهُنَّ سَبعٌ عِجَاف وَسَبعِ سُنبُلَٰتٍ خُضر وَأُخَرَ يَابِسَٰت لَّعَلِّيٓ أَرجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُم يَعلَمُونَ ﴾.

وكأن مدار حياة يُوسُف على الرُّؤى، فرؤيا كانت بُشرى خير له من والده أنّه سيسير على درب أجداده، ورُؤيا كانت سببًا في خُروجه من سِجنه.

سمع يُوسُف رُؤيا الملك وأخذ يؤولها للساقي أو بالأحرى كان يضع خطة اِقتصاديّة لِدولة بِأكملها.

بعد سنوات العجاف جاء الفرج على يُوسُف، ورغم الأجواء

المظلمة كان يرى يُوسُف بشائر الخير، فأبشّر فبعد سنوات عجافك لابُد من أن يلُوح في سمائك بروق الخير، وستمطر سماؤك فرجًا، فلا تحزن وثّق أنّ نصيبك من الخير آت لَا محالة.

سمع الملك تفسير رُؤياه، ليجهّز مُكافأة ليوسف، أن يُخرجه من سِجنه، فقد آن موعدُ تحطيم تلك الحوائط التي تحجز حُريتهُ، وفك تِلك السَّلاسل التي تُقيد قدمه، ليأبى يُوسُف الخُرُوج دُون أن تظهر براءته على رُؤُوس الأشهاد، وتُردُّ لَه كرامته أَمام الجميع، ليخرج من السِّجن بسمعة كالشَّمس الطَّالعة في كبد السَّماء.

فقد كان يُؤخّر اللَّه خُرُوج يُوسُف ليخرجه مرفُوع الرَّأس بهامة تطال النُّجوم.

فلَا تتعجّل دُعاء همست به بليل، فاللَّه قد أعدَّ لك وقت اِستجابة لو علمته لسجدت له فرحًا، فانتشل نفسك من جُب الحُزن، وقف بقدم واثقة لمواجهة صُعوبات الحياة، ورمم ثُقُوب قلبك بِالدُّعاء، وثق أنَّ ربك لم ينساك يومًا، نسي ساقي الخمر أمر يُوسُف، ولما أراد اللَّه فجر ذكرياته كينبوع ماءٍ فاطمئن.

صمد يُوسُف لسنوات على ظُلمه، وعلى كل الافتراءات التي طالت من سُمعته لم يضعف أمام قُوة الظَّالم، ولم يهن اِيمانه، بل ظل ثابتًا كالجبال

الرواسي حتّى أنطق الله امرأة العزيز ﴿ ٱلۡـَٔـٰنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾، فمهما أُغلقت أمام الحقائق النَّوافذ سيفتح الله لها أبوابًا.

يخرج يوسف من محبسه ليمكن له من مصر، فالطّفل الذي كان وحيدًا في جُبه بالأَمس أَصبح الآن على أعلى مناصب الحُكم.

لم يمكُث يُوسُف كثيرًا حتّى أقبل عليه إخوته، وبدأت لتنبئنهم تَتَحقَّق، مُذهل كيف تدُور الأيّام، وكيف يُغيّر الله الأحوال، جاء الله بإخوة يُوسُف بعد أن ملك زِمام الأُمور، وصار على أَعلى مَناصب الحُكم، لم يأتي بهم وهُو عَبد في قَصر العزيز ولَا حبيسًا في سِجن، جاء بهم عِندما أَصبَح يُوسُف عزيزًا لِمصر حَتّى لَا يَجعل لِلشَّماتة فِيه سبيلا.

فلو تدبرت قليلا لعملت أنّ رَبك ما أخر لك دُعاء إِلَّا لاختيار التّوقيت الصحيح، الوقت الذي ترفع فِيه هامتك وتشعر بالنَّصر على من خذلك، أو من تخلّى عنك، فادع الله بما شئت، واترك اِختيار وقت الإجابة له.

أقبل إِخوة يُوسُف عليه بثياب رثة وأجساد قد أرهقها الجُوع، ووجُوه غبر من آثار السَّفر، ﴿ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾.

كم هو مُحزن أن يمُر شريط ذكريات حياتك، أَمام ناظرك، ولا يسعك

أن تتذكر من الأيّام الخوالي إِلّا المشاهد السَّيِّئة، فالذّاكرة مهما ضعفت، ومهمّا بلغ الإنسان من العُمر، من المستحيل أن ينسى الذّكريات المؤلمة، فمن يستطيع نسيان جرح في جسده، حتّى وإن التأَم فلا يزال أَثرُه ظاهرًا.

كان هذا حال يُوسُف لم يستطع يومًا نِسيان تِلك الوُجوه التي خططت لقتله فبرغم أنَّ سنين طويلة قد مَرَّت كفيلة أنّ تغير الملامح،

هُم نسُوا وجه أَخيهِم ولكنه لم ينسهم، كان مُتشبّثًا بملامحهم، حافرًا إيّاها في ذِكرياته، فلمّا قضى حاجتهم وأوفاهم كيلهم، قال أتوني بأخ لكم من أبيكم وإلّا لا كيل لكم عندي ، لِيسرعوا عائدين إلى والدهم يراودونه عن ولده ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾.

هُناك كلمات تتسبب في فتح جرح قديم قد عالجه الزَّمَان ولكن ما زالت آثار النُّدوب مَحفُورة في القلب، لتفجر في عقل يعقُوب ثورة من الذِّكريات فما بين ﴿ أَرسلهُ مَعَنَا غَدا يَرتَع وَيَلعَب وَإِنَّا لَهُ لَحَٰفِظُونَ ﴾، وقولهم ﴿ فَأَرسِل مَعَنَآ أَخَانَا نَكتَل وَإِنَّا لَهُ لَحَٰفِظُونَ ﴾، هُناك سِجلٌّ طويل من الأحزان والبكاء، فكيف يُعطِي قلبًا الأمَان مِن جديد لمن طعنه غدرًا ؟

ورغم قلق يعقُوب على ولده الصغير، ومخافة تكرار تجربة يُوسُف، فالقلب لم يعد يتحمل فِراق شخص آخر، إلا أنَّه وثق فيهم مِن جديد، لكن هَذه المرة كان الدُّعاء قبلته، ونداء رَبِّه وُجهته، أن يحفظ غُلامه مِن كُلِّ سُوء، فبعد أَنفاس مُتتالية، وتنهيدة عَميقة انطلق لسانه قائلا ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾، لِينطلقوا عَائدين إلى يُوسُف فقد تَحقَّق مُرادهم ونالوا مُبتغاهم، فما لبثوا إلَّا آوى إليه أَخاه، فقال له يُوسُف مُطمئنًّا بِكلمات رَبَّت بِها على كتفه ﴿ إِنِّيٓ أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

رَغم ما مرَّ به يُوسُف إِلا أنَّ رُوحه الطَّيّبة ما زالت كما هي لم يُغيرها زَمان ولم تُشوهها الأحداث، فما زال يُضمّد جراح من حوله، ويمسح بِيده على قُلُوب المنكسرين.

يُجهز يُوسُف لهُم رحالهم لِتوضع السِّقاية في رحال أخيه، لِيرفع مُؤذّن صوته عاليًا "أَيتها العير إِنّكم لسارقون"، فأقبلوا بِقلوب واثقة أَنهم ما سرقوا فمِن المستحيل لابن نبي أن يمد يده إِلى ما حرم اللَّه.

ولكن كما يُقال في عُرف القانون " المُتهم بريء حتّى تثبُت إِدانته" لِيمروا على محطَّة التَّفتيش، لِتكوُّن الصّدمة أن تُخرج السِّقاية مِن وِعاء أَخيهِم، فأصبح الأمر واقع، وتَحول أَخيهِم إِلى مُدان حُكم عليه في وقتها، فلن يعُود الغُلام إِلى بيت والده مِن جديد!

وفي لحظات التّوتُّر فقد أصبحوا أَمام أَمر واقع، لقد ضيعُوا أخاهم الذي أقسموا لوالدهم أَنهُم سيعودون به، ليسرعوا قائلين بلسان واحد ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡ﴾، أَكثر الأشخاص زيفًا هُم من يُصدِّقوا عنك الأكاذيب، ويردّدوا عنك الشَّائعات ويسمعوا عنك ولا يسمعون منك، كان قلب يُوسُف يعتصر من هذا الاتّهام، كان قادرًا على الرّد والدّفاع عن نفسه، ولكنّه فضّل السُّكوت.

لقد حاولوا مع يُوسُف مرارًا وتكرارًا أن يترُك أخاهم ليعودوا به إلى أَبيهم ولكن ظلَّ يُوسُف صامدًا حتّى وصلُوا معه إلى مرحلة اليأس ﴿ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَ ﴾، هُنا نقف في حالة من الصَّمت أَمام هذا الاعتراف وتأنيب الضمير الذي طال اِنتظاره، وتذكر الأَخ الذي ظُلم وبات في أَحضان جُب يُرعب الجن قبل الأنس.

رفض الأَخ الأكبر العودة ومواجهة والده، فكيف سيخبره أَنّه لن يرى ولده من جديد، رُبما لم يقوى أن يرى مزيدًا من الدُّموع في عين والده.

ليرجعوا إلى سيّدنا يعقُوب قائلين: ﴿ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴾ ، كلمة أَبانا التي لا يُوجد قلب لا يتمنّى سماعها ولا أُذُن تتُوق إلى وقعها، لكن كان سيدنا يعقُوب تُصيبه بالقلق فكم سمع من الأخبار القاسية بعد تلك الكلمة.

لِيحاول بشقّ النفس مُواجهة فقد بنيامين، وكبت تلك الحُرقة، قائلا: ﴿ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ ﴾ ، كانت كُل الدّلائل تقُول له أنَّ يُوسُف قد مات، وأنّ بنيامين لن يعُود ولكن يقينه كان يقُول ليس هُناك مُستحيل مع اللَّه، ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴾ .

لقد أَطفأ الحُزن كُل جميل في قلبه حتّى أَطفأ نُور عينيه، مضت سنوات وما زال يبكي على يُوسُف، فهناك أَماكِن في القُلوب لا يملؤها إِلَّا شخصا واحد.

ذهب بصرُه وانحنى ظَهره واجتمعت عليه الأحزان، لم يكف حُزنُه على يُوسُف ليجتمع عليه حُزنُه على بنيامين.

لقد تخيلت لوهلة أنَّ يُوسُف لو كان ميّتًا لأحياه اللَّه من أَجل بُكاء يعقُوب.

ولكن ابشر يا نبي الله! لقد هانت أَيام حُزنك أن تنقضي، وفرج ربّك

قد أَصبح على بابك، فريح يُوسُف أَصبحت تقترب مِنك بِسرعة أكبر من ذي قبل.

﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴾، كانت الغيرة تأكُل قُلوبهم من ناحية يُوسُف وكأنّهم لا يُريدون حتّى أن يظلّ يُوسُف في ذكريات والده.

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ هُناك كلمات لا تُقال إلّا لله وُلعثمة لا تَظهر إلّا في حضرة الله، وحُزن لا يشكى إلّا لله.

في تلك اللّحظة التي أخذ فيها يعقُوب نفسًا عميقًا، ليدعو ربه بيقين أَنه قادر على أن يصنع من أَجله المعجزات، ويحُول من أَجله المستحيل، كان اِيمانه أَقوى مِن الأسباب، ويقينه أَقوى من الأزمات.

لو كان هُناك مدرسة لتعليم الأمل لسميت مدرسة يعقُوب، كان الجميع من حوله يبثُّون له سُمُوم اليأس، وهُو مازال مُمسكا براية الأمل ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ .

ليعودوا ليوسف من جديد ولكن هذه المرَّة بلسان الرّجاء والطّمع في كرمه ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴾ ، وكأن يُوسُف

حينما سمع تلك الكلمات بالكاد تماسك، وبالكاد أمسك الدُّموع حتى لا تتساقط من عينيه، فأهله قد مسهُم الضُّرُّ.

﴿ قَالَ هَل عَلِمتُم مَّا فَعَلتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذ أَنتُم جَٰهِلُونَ ﴾، لم يخض في الماضي ولم يُذكّرهم بجريمتهم ولم يدع للوم سبيلا.

وفي لحظات اتسعت فيها العُيون، وبدأ العقل ينشط في اِستعادة الملامح، وكأن العين كان عليها غمامة أزاحتها كلمات يُوسُف ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَد مَنَّ ٱللَّهُ عَلَينَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصبِر فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجرَ ٱلمُحسِنِينَ ﴾.

لا يضيع اللَّه من اجتهد في سبيله وسار في طريقه، من عاش لإرضائه ولم يكن له هم إلّا طاعته، فقد اِختصر اللَّه الثّمرة من تلك الرّحلة الطّويلة، والغاية من هذه السُّورة في بضع كلمات ﴿ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجرَ ٱلمُحسِنِينَ ﴾.

﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَد ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَينَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِئِينَ ﴾، جاء الاعتذار بعد سنوات والاعتراف بأفضليَّة يُوسُف ليس عند أَبيهم فقط بل عند اللَّه .

﴿ قَالَ لَا تَثرِيبَ عَلَيكُمُ ٱليَومَ يَغفِرُ ٱللَّهُ لَكُم وَهُوَ أَرحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، ما أعظم تلك الشّخصية ، لقد نسي في لحظات التّاريخ الطويل من

المكائد، والاتّهامات الظّالمة، أيّ قلب اِمتلكه يُوسُف، وأيّ عفو اِستطاع أن يُقدمه بعد كُل تلك السَّنوات من المعاناة من فراق لوالده ، وضياع لِحرّيّته وحبسه، تتجلّى كلمات العفو على لِسانه بِبساطه كأنّما يتنفّس الهواء.

كانت كلمات يُوسُف بمثابة صكّ العتق لأخوّته، فقد آن لهم أن يتخلّصوا من ذنب قد لاحقهم لسنوات.

لقد كان يُوسُف بمثابة الطبيب المعالج ليس لقلوب إخوته فقط بل ولعيني والده التي اِبيضّت من الحُزن قال تعالى : ﴿ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾.

كم هُو عجيب هذا القميص وكأنّه نسج من خيط القدر، فالقميص الذي لم يُمزقه ذئب، كان دليلا ملمُوسا على عدم موت يُوسُف، وشاهد إثبات على براءته من فتنة امرأة العزيز، وعملية جراحيّة لعيون شيخ قد أطفأ نُورها الحُزن، فأحيانًا تقف في حالة من الذُّهول أَمام قُدرة اللهَّ على ترتيب الأمور وتغيير الأحداث، فمن يظُن أنّ السّبب في حُزن يعقُوب سيكون هُو سبب شِفائه.

بدأ يعقُوب يستشعر اقتراب ولده، ويشتم رائحته فاللحب رائحة لا يُدركها إلّا العاشقين، لا تُشم بِالأنوف وإنّما بالقلوب ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ

قَالَ أَبُوهُم إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾.

ليصل البشير ومعه العلاج مُمسكا في يده دواء ليعالج عيني يعقُوب، كان قميص يُوسُف بمثابة المرهم الذي وضع على جُروحه، ليرتدّ بصيرًا وليقف أمام أولاده في حُلة النُّبوّة قائلا ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعلَمُونَ ﴾.

ما بين تلك القولة وقوله ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، تاريخ طويل، وسجل حافل بالثّقة في الله، واليقين أنّ ربه لن يخذُله، لن يرُد دُعاءه ولن يقطع رجاءه.

تعلّق يعقُوب بحبال الأمل، وتشبث فيها بيقينه بربه، فهكذا الدُّعاء هُو حبل واصل بينك وبين ربك، اِعتصم به وتمسّك بعقده، وكُن دائمًا على يقين أنّ حبل الله متين، لا تقطعُه الأزمات، ولا تُفلته الأسباب، فالزم يدك بحبله ولا تأوي اِلى رُكن غير رُكنه.

ينطلق يعقُوب ومعه أولاده إلى رُؤية حبيب تأنّ القُلوب شوقًا لرؤيته، فقد طال فراقه، فما إنّ دخلُوا عليه إلّا خرُّوا له سُجّدًا، لتنعش ذاكرة يُوسُف برؤياه التي لم تُفارق خياله، فلم تكن أضغاث أَحلام، بل قدر لازمه لسنوات ولم يكن ما مرّ به إلّا مُجرد تمهيد لتأويل تلك الرُّؤيا.

كانت كُلُّ تلك التّرتيبات في ظاهرها الشّر وفي بوادرها السُّوء، ولكن

تلك أَقدار اللَّه فكما يُخرج اللَّه الحي من باطن الميت فكذلك يخرج الفرج من وسط الكرب ويفجّر النُّور من بين زحمة الظُّلمات.

ما إن يرى يُوسُف هذا المشهد إلّا ويفزع لأبيه قائلا ﴿ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾.

الغريب أنّ يُوسُف لم يقُص لوالده شيئا ممّا عانه، ولم يحك له عن ليلته التي باتها في الجُب، ولم يذكُر له كيف بيع عبدًا أو كيف راودته امِرأة العزيز، ولم يحك له عن تلك السّنوات التي ضاعت في غيابات السّجن، وعن الأَعوام التي كانت يدُه مُقيدة بالأصفاد، لم يرد أن يرسُم على وجه أبيه ملامح الحُزن، ولم يتذكّر لربه إلّا مشاهد الخير.

كان بلاء يُوسُف طريقًا رُسم له ليسير فيه، ليرفع يده لربه، وليتوجّه لذلك الباب الذي لا يضام طارقه ولا يُخذل زائره، فصبر يُوسُف لسنوات على أمُور لم يكُن لها تفسير، وعلى أحداث لم يكن لقلب أن يتحمّلها لأَنه كان يُدرك أنّ الخيرة فيما اِختاره اللَّه، وأنّ دفّة حياته في أَمانٍ طالما أنّ من يُدبّر أمُوره هُو اللَّه، فلم يستعجل الفرج، ولم يشتك التّأخير، بل كان على يقين دائم أنّ ربّ الخير لا يأتي إلّا بخير

* منك تعلمت *

تعلّمتُ من نبي الله يعقُوب أنّ بعض النّعم يجب أن تكتّم ولا تتحدّث بها أمام كُلّ رائح وغاد، فليست كُلّ قُلُوب البشر نقية، فرُبما أصابك بسهم حسد وأنتَ لَا تَدري. مِنك تعلمت أنّ العدل مُمكن في كُلّ شيء إلّا الحب فلا يستطيع الإنسان السّيطرة على فُؤاده.

مِنك تعلمت أنّ مقُولة البعيد عن العين بعيد عن القلب ليست صوابًا دائمًا كان يُوسُف بعيدًا عنك بِالألف الكيلو مِترات وكان أَقرب إِلى قَلبك من جميع إِخوته.

مِنك تعلمت أَلَا أُصرِّح بخوفي فرُبما أعطيت لِمن أَمامي حربة ليقتلني بها دُون قصد فعرف أَين يغرز رُمحه في جَسدي.

مِنك تعلمت أنّ الأذية تأتي من آخر شخص تتوقّعه والغدر رُبما يأتي ممن أعطيته الأمان أو جعلته حاميًا لظهرك.

مِنك تعلمت أنّ أفضل عِبادة قد يتقرّب بها عبد لربه هي اِنتظار الفرج، وأنّه مهما قويت شوكة اليأس فعليك كسرها بِعصا الأمل.

مِنك تعلمت أن أبحث عن الأمل حتّى ولو كان في كومة من القش.

مِنك تعلمت أنّ هُناك أماكن في القُلوب تظلُّ شاغرة لِغياب قاطنها فالبعض له مكانة في القلب لَا تجُوز لغيره.

مِنك تعلمت أنّ الوُجهة لِلَّه وحده والدُّعاء لَا يكُون إلَّا لِلَّه، مَهما أُغلقت أمامك الأبواب وسدّت أمامك النّوافذ كان شعارك الأول ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

* منك تعلمت *

تعلّمتُ من يُوسُف أنّ الأحلام تتحوّل إلى حقيقة وأنَّ الأمنيات مهما تأخرت فالله سيحقّقها لكن في الوقتِ المناسب لها.

منك تعلمت أنَّ التّجارب القاسية مُتعبة مُدمرة لنفسيّك ،لكن لم تكن بِكلِّ هذا السُّوء فقد جعلت مِنك شخصًا أَفضَل، فالسُّفن ليست لها قِيمة إِذا كانت على اليابسة والبحر الهادئ لا يصنع بحَّارًا ماهرًا.

منك تعلمت أن أرى النُّور في أشدِّ الظُّلمات وأنّ الابتلاءات سَحابة صيف فيها خَير حتّى وإِن لم تُمطر.

منك تعلمت أنَّ أَعظم كَبت هُو كَبت النَّفس عن الشَّهوات فإِن فَتح لك الشَّيطان بابا لِلمعصية أَهرع أَنت إِلى باب الاستغفار.

منك تعلمت أنَّ النُّصح والدَّعوة إلى اَللَّه لا يُقيدها زمان ولَا يحويها مكان، دعوت لعبادة اَللَّه فِي أَحلك الظُّروف وأضيق الأماكن.

منك تعلمت أنَّ الكريم لَيس من ملك مالا وتصدّق به فقط بل من اِستطاع أَخذ حقّه ورغم ذلك فضّل العفو عن الثَّأر.

مِنك تعلمت إن تلاطمت أَمواج اليأس بِحياتك أَمتطي أَنت خشبة الدُّعاء.

مِنك تعلمت أن أَسأَل اَللَّه من نعمه وأن أَسأله تمامها وتمام نِعمته أن تَكُون سببًا فِي رِضَاه لَا سببًا فِي سخطه.

﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

مع أواخر عام ألفين وتسعة عشر بدأ العالم يُواجه تهديدًا وخطرًا تسبَّب في زعر الملايين من البشر، فقد اِنتشر في الصِّين فيروس فتَّاك، لا يُصاب به أحد إِلّا وكانت نسبة شِفائه أقلّ من نسبة موته.

تعالت الأصوات في جميع أنحاء العالم وعلى جميع الفضائيَّات، أن ودعوا أحبابكم فقد يكُون هذا العام آخر أعوام البشريَّة على الأرض، فلا سبيل لإيجاد علاج إِلَّا بعد سنوات، خلالها سيكُون الفيروس قد أَهلك الملايين من البشر فهو أَقرب شبهًا بالإنفلونزا الإسبانيَّة التي قضت على أَكثر من خمسين مليون شخص.

والبعض أخذ يُكرّر أنّه غضب الطَّبيعة على البشر، وأكثرهم قُربًا من اللَّه أَخذ يُردّد أنّه ما هُو إِلَّا عقاب من اللَّه وبلاء لنرفع أَيدينا إِليه، وأنَّ اللَّه حرمنا دُخُول بيته لأَنَّنا أسرفنا في الذُّنوب، وكثُرت المشاهد المُحزنة وازداد تفشّي المرض فلا يكاد يترُك بيتًا إِلّا وزاره .

الكثير فقد رُبما حبيبًا أو صديقًا، الكُل لازم بيته رُعبًا، والبعض ترك وظيفته خوفًا من الموت الذي أَصبح كإعصار لا يقف أمامه شيء،

وأخذت شركات صناعة الأدوية تتسابق من سيكُون المخلص للعالم من هذا الفيروس الذي أقلق راحة المليارات وحول العالم إِلى ساحة من الجحيم.

رُبما الآن أَنت تُحدث نفسك لما أُخبرك بأمر أَنت تعلمه جيدا، وبحكاية أَنت عيشتها بجميع تفاصيلها!

فأقُول لك تخيل أننا أُصبنا بالخوف والذُّعر لمرض، رُبما حتّى لم نُصب به، وبفيروس خِلال الشُّهور السَّابقة بدأت تلُوح في الأُفق له أَدوية للشّفاء، التي جعلت من هذا المرض أمرًا طبيعيا بات من الممكن التَّعايش معه لأنَّ هُناك أملا بخروج دواء عاجلا أم آجلا.

بطلُنا عانى أيضًا أَوجاع المرض، وألم الفقد والخسارة، كان من أَغنى النَّاس مالا، وأكثرهم ولدًا، جاء له بلاء لِيعصف بكل ما يملك ويأخذ منه كل ما يُحب، لتهلك ثروة سيدنا أيُّوب، ويمرض جسدُه، ويمُوت أولاده، ويتخلّى عنه جميع من عرفه، لم يبق له إِلَّا زوجته الحنون التي ظلَّت صامدة معه طيلة مرضه، ومكثت معه طيلة أعوامه لم تُغادِره بل ظلَّت بجواره.

لو كان بيد سيدنا أيُّوب أَوسمة لكرمها ولعلق لها نياشين الوفاء، لم يزد سيدنا أيُّوب بعد كل تلك الخسارات الموجعة إِلَّا لِلَّه ما أخذ ولِلَّه ما

أَعطى، لم يقل لما يا رب كل هذا البلاء، ولم يرفع يومًا نظره إِلى السَّماء ويقول يا رب أنَا لا أَستحق كل هذا الألم، وكل تلك الأوجاع، فأنا لست عبدك فقط بل أنا نَبي من أنبيائك.

لم يكن الوجع الذي أُصيب به سيدنا أَيُّوب جسديًّا فقط بل نفسيًّا أيضا فقد كان يُقاسي الأمرين، فمع طُول أمد المرض يزداد الضَّغط على نفسيَّته، وأدبه ألا يدعو ربه أن يرفع عنه البلاء أو على الأقل يُخفّف عنه جرعات الألم.

فمع اِزدياد المرض دائمًا ما تقل أوقات النَّوم، وتزداد أوقات اليقظة، وتصبح الأيّام أكثر شدّة، والسّنوات يَزداد وقعها على القلب صُعُوبَة.

فجأة كل الأُمور تغيرت والعز الذي كان فيه أَيُّوب أصبح فقرًا، والقوة تحولت لمرض، والصُّحبة تحولت لِوحدة، لم يكن له أحد يزوره ولا صديق يعوده إِلَا رجلين رُبما كانا من أَخلص النَّاس لَه بعد زوجته.

كما جاء في المستدرك" أنّ أَيُّوب نبي اللَّه لبث به بلاؤه خمسة عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إِلَّا رجلين من إِخوانه، كَانَا من أخصّ إِخوانه، قد كَانَا يَغدُوان إِليه، ويروحان".

مع كل هذه الأزمات ما زال أَيُّوب مُتمسّكًا بالصّبر، ثمانية عشر عامًا لم يضعف إِيمانه يومًا، ولم يدخُل الشَّيطان إلى قلبه من باب المرض

ليخبره أن ربّه تخلّى عنه.

لن أُبالغ إِن قُلت إن الشَّيطان لم يكن لِيجرؤ أن يخطو على عتبة بيت أيُّوب فهناك رجل بداخل هذا البيت ملأ اليقين قلبه، فبرغم ضعف الأسباب فلا طبيب يُعالجه، ولا مُمرضة تقُوم على خدمته، ولا معمل بات العاملون به على تجهيز دواء له ليشفى من مرضه الذي عَانى منه لسنوات.

كانت زوجته تُلح عليه أن يسأَل ربّه، أن يدعو الطبيب الذي لا يُعجزه مرض.

وفي لحظة من لحظات قُرب بينه وبين رَبّه شرع سيدنا أيُّوب في شكواه للَّه وفي إِطلاق لِسانه الذِي صمد لِسنواتٍ عديدةٍ دُون أن يسأَل ربه.

ستتعجب إِن قلت لك إن سيدنا أيُّوب كان يتلذذ بالبلاء، لأَنه كان يعلم أنَّ ما من يوم يمُر عليه إِلّا رفع اللَّه مقامه درجات.

فهكذا حال المُؤمن يا فتى من المستحيل أن يُصيبه بلاء ولا يخرج منه مُنتصرًا قال رسُول اللَّه ﷺ " عَجَباً لأمْر الْمُؤْمِنِ إنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ إلاَّ لِلْمُؤْمِنِ: إنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خيْراً لَهُ".

وفي لحظة من لَحظات ضيق الصّدر وصعوبة التّنفس وقلة الحركة لَجأ

سيدنا أيُّوب إلى ربّه بدعاء، وكأنّه تدرب كثيرًا ليختار أكثر الأدعية أدبًا مع ربه، قال تعالَى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾، لما همس سيدنا أيُّوب بندائه بأدب، جاءت له الاستجابة أسرع ممَّا يتخيّل، وكأن أبواب الفرج كانت تنتظر دعوة سيدنا أيُّوب لتفتح على مصراعيها، ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾، كان هم سيدنا أيُّوب فقط أن يُشفى من ذلك المرض الذي مسه به الشَّيطان، ستقُول لي مهلًا صحح قولتك فالمرض لَا يأتي من الشَّيطان بل من اللَّه، فالشَّياطين لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، فكيف لهم أن يُصيبوا بشرًا بمرض؟

فأقُول لك أصبت يا فتى فالمرض والشّفاء من اللَّه، ولكنّي تعلمت من سيدنا أيُّوب الأدب في حديثي مع اللَّه وفي خطابي مع ربّي، فسيدنا أيُّوب كان يُوقن أن الأُمور كلها بيد خالقه.

ولكن لم يُحب للحظة أن ينسب شرًّا لمولاه، ولم يكن يحدث نفسه أن محبوبه الأول والأخير قد يُصيبه بمرض فقال مُتأدّبا ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ ، في طرفة عَين شُفي سيدنا أيُّوب وعادت له صحته وقوته بقليل من الماء نبع من تحت قدمه .

تذكر دائمًا الفرج قريب.. قريب جدًا.. بل أقرب مما تتخيل، فمن

كان يظن أن دواء سيدنا أيوب يكمن تحت قدمه قال تعالى: ﴿ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴾، كان دُعاؤه فقط أن تعُود له صحته، وأن ترد له قُوته، لم يطلب مالا.. ولم يسأل ولدًا، ولكن كان يعد له اللهَّ مُفاجأة تفرح قلبه، وجبرًا يليق بصبره.

ففي العادة بعد كثرة المذاكرة والاجتهاد ينتظر الطَّالب أن ينال المرتبة التي يستحقُّها بعد سهره ليلا واجتهاده نهارًا، فكانت مُكافأةُ سيدنا أيُّوب وسامًا يُعلق على صدره، وشارة تميِّزه عن أَقرانه من الأَنبياء، قال تعالى ﴿ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴾.

ثق دائمًا أن العوض والجبر حينما يأتي من اللهَّ لا يأتي عاديًّا، يُعوضك بأضعاف ما أُخذ منك، يمسح على قلبك بهدايا ربانية، ويجبر خاطرك بعطايا إِلهيَّة، كان سيدنا أيُّوب من أغنى النَّاس وأكثرهم ولدًا ومالا، وما إن نزلت به تلك الجائحة إلّا أَضاعت منه كل شيء، حتّى لم يبق في جسده موضعًا لغرز إِبرة إِلّا وأَصابه المرض.

وبرغم ذلك لم يضع سيدنا أيُّوب يده على خدّه مُعترضًا على أقدار ربّه، بل صبر لأنه كان على يقين أن اللهَّ يُخبِّئ له في طيَّات الغيب كُل الخير.

قال تعالى ﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي

ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾، لَقد عاد له كل ما أخذ منه و رد إليه أَضعاف ما كان لديه.

دعني أُقاطعك للحظات وأخرجك من مسار القصة لدقائق، سأسألك أتصدق في الأساطير؟

فهناك أساطير كثيرة سمعناها في صغرنا، وكانت جُزء من طُفولتنا بل لا أَكذب إِن قُلت أنّي تأثرت ببعضها وصارت لي أقرب إِلى الحقيقة، فمثلا أُسطُورة إيزيس وأوزوريس أو رُبما أُسطُورة المدينة المفقودة أتلانتس، كانت تشدنا في تلك الأساطير الأُمور الغريبة، فمدينة أتلانتس القارَّة التي لم يثبت بدليل قاطع وُجودها، فوجودها قائم على مجمُوعة فرضيَّات لا أكثر يُرددها العلماء، لعلك الآن تسأل ما الفائدة فيما ذكرت؟

فأقُول لك كل تلك الأساطير التي كبرنا عليها ما كانت إِلّا نسجًا من الخيال أو بعض الفرضيَّات العلميَّة التي رُبما ليس لها أَساس من الصّحة، ولكن دعني أُخبرك بأمر مرّ به سيدنا أَيُّوب أشبه بالأساطير وأقرب لما تُشاهده في أفلام الخيال العلمي، غير أن الفارق الوحيد هو أن ما مر به سيدنا أَيُّوب كان حقيقة وواقعا ملمُوسا، فقد أمطرت من أَجله السَّماء، ستقُول وما العجيب في ذلك فالسَّماء دائمًا ما تُمطر!

فأقُول لك لم يكن المطر الذي نزل لسيدنا أَيُّوب مطرًا من ماءٍ بل

من ذهب، فعن أبي هُريرة رضي اللَّه عَنه أنَّ اَلنبي ﷺ قال : " بيْنَما أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيانًا خَرَّ عليه رِجْلُ جَرادٍ من ذَهَب، فَجَعَلَ يَحْثِي في ثَوْبِه، فَنادَى رَبُّهُ: يا أَيُّوبُ أَلَمْ أَكُنْ أغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى؟ قالَ: بَلَى، يا رَبِّ، ولَكِنْ لا غِنَى بي عن بَرَكَتِكَ"، فيا بني اِصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأُمور، واعلم أَنّه مهما اِمتلأت سماؤك بالغيوم فحتماً ستنقشع عمّا قريب، ومهما زعزعتك رياح البلاء فثق بأنَّ الفرج قد شارف على أن يطرُق بابك.

تشبّث فقط بِالدُّعاء، واشف رُوحك بسؤال اللَّه، وضمّد جُرُوحك بأنينك لربك، ناده بلسان مريض قد أرهق جسده المرض، وبلسان مُسافر قد ضلَّ به الطريق، قل له يا رب عبد من عبيدك لم يجد للهمّ مخرجا، أُجاهد بكلِّ قوتي حَتّى لا أسقط، وأقف مُدمى القدمين حتّى لا يشمت بي أعدائي، لا سند لي إِلّا أَنت، ولَا عون لي إِلّا أَنت، ولا رجاء لأحد إِلّا لك أَنت، أرهقني البلاء وكثر عليّ الشّقاء ومسني الضُّرُّ وأنت أَرحم اَلرَّاحمين.

* منك تعلمت *

تعلمت من سيدنا أيُّوب عليه السَّلام أن كلمة الصَّبر مفتاح الفرج ليست محض خيال بل واقع ملمُوس.

منك تعلمت أن الطبيب ما هو إلّا مُجرد سبب وأن الدّواء قد يكون على هيئة ينبوع ماءٍ تحت قدمك.

منك تعلمت الأدب مع الله فبئس العبد من أَساء الأدب مع رَبّه.

منك تعلمت أن دوام الحال من المحال وأن الله يُقلب الأُمور كما يقلب اللّيل على النَّهار.

منك تعلمت أن إجابة الدُّعاء ليست مُعلقة بكثرة كلمات ولا بنظم مُعيّن، كان دُعاؤك أقَلَّ من أن يُعد على الأصابع ولكن كان تأثيره أقوى من أَلف كلمة.

منك تعلمت أن الجبر إِذا أتى لا يأتي طبيعيا، كان طلبك من الله أن تُشفى فأعاد لك الله كل شيء فقدته مُضاعفا.

منك تعلمت أن الجميع قابل للتّرك، والوفي هو الذي صمد بجوارك

ليس في وقت قُوتك بل في وقت ضعفك.

منك تعلمت أن للابتلاء حلاوة تُعينك على مرارته، وأن أفضل عبادة تُواجه بها سُوء الأقدار هي الرّضا.

منك تعلمت ألا تنظُر إِلى ضيق الأُمور على أنها غضب، بل أُنظر إِليها بعين الرّضا وظنّ في ربّك الخير، أصابك مرض لثمانية عشر عامًا ورغم ذلك لم تزد عن قولك

" وأنتَ أَرحَم الرَّاحمين ".

منك تعلمت أن اللَّه قد يُغيّر طبيعة الكون بأكمله من أجل أن يُرضي عبدًا، فالسَّماء من عادتها أن تُمطر ماءً ولكن من أَجلك أمطرت ذهبًا.

﴿ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾

مُنذ صغري كنت مولعًا بالعملاق المصنوع من الحديد المُسمى بالغوّاصة، جذب اِنتباهي قُدرتها الهائلة على الغوص تحت سطح الماء، كُنت مبهُورا كيف لكتلة من الحديد أن تخترق مياه البحر بكل هذه السُّهولة، أخذت على نفسي عهدًا أن أكتب عن إحدى تِلك الغواصات.

اِخترت أن أَكتُب عن أَول غواصة عرفها التَّاريخ، وعن أول بشر غاصّ تحت الماء دون أجهزة تنفُّس، ولا أدوات الغطس الحديثة،أنا لا أُحدثك هُنا عن تلك الغواصة التي اِخترعها الهولندي فون دريبل، بل أُحدثك عن غواصة لم تكن من الحديد، بل من لحم ودم.

كان سيدنا يُونُس رُبّانها، لم تكن تحتاج إِلى أيّ نوع من أنواع المحرّكات أو الرادارات أو أنواع الوقود المختلفة، كانت تتحرك بدون دفّة أو مجداف، فمحركها عبارة عن مجمُوعة من الزّعانف، فقد كانت على هيئة حُوت عملاق يجُوب البحار وفي بطنه نبي من أَنبياء اللَّه.

فأرى في عينيك نظرة قد حفظتها حينما يجُول في ذهنك سُؤال إذ كيف لنبي أن يصل به الحال سجينًا في بطن حُوت؟

كان سيدُنا يُونُس كحال إِخوانه من الأنبياء مُرسلا إِلى قرية تُسمّى نينوى بالعراق، وكالعادة فلم يكن الطريق مُمهدًا أمام دعوته، وكأن طريق النَّجاح دائمًا يُرافقه المزيد من الصُّعوبات، اِلتمس لهم كل طريق لدعوتهم لِلَّه، بضع وثلاثون عامًا كان همه أن يُؤمن قومه، لكنهم تمردوا عليه وفضلوا الكُفر على الإيمان، ووقفوا مُعارضين أمام دعوته، تخيّل أن أكثر من مائة أَلف لم يُؤمن منهم غير رجلين.

من منَّا لن يُصاب في هذا الموقف باليأس، لن يرى بادرة أمل، لينطلق سيدنا يُونُس مُغضبًا تاركًا خلفه عِناد قومه مُحاولًا البحث عن مكانٍ ينشرح فيه صدره لِيمتطي إحدى السُّفن.

رُبما كان عليه الانتظار حتّى يأتي أَمر ربّه، لكن رُبما يُعذر الإنسان بضيق صدره، وفي وسط هذا البحر الشَّاسع، ومع هوائه البارد وأمواجه الهادئة، فجاءة فزع الجميع وأخذوا يُهرولون على سطح السَّفينة، فقد حان موعد المد وأخذت الأمواج تتَعالى، ورفعت السّفينة أشرعتها، وجُنّ البحر كمن فقد عقله وغلب على الجميع الخوف ووجلت قُلوبهم.

لينطلق لسان أحدهم قائلًا لعل ذلك بذنب أحدنا، لنجري قُرعة ومن وقعت عليه ألقيناه في البحر، وكأن تلك القُرعة قد كتب على جميع أسهمها اِسم يُونُس، فكلما اِستهموا وقعت عليه!

ولأنّهم توسّموا فيه الخير أعادوا من أجله القُرعة مرارًا وتكرارًا، ولكن النّتيجة لم تختلف، وأصبح الأمر واقعًا لا هُرُوب منه فالذي سيلقى في أمواج هذا البحر الغاضب هو نبي اللَّه يُونُس، وفي وسط تلك العاصفة الهائجة، كان هُناك حُوت قد اِختراق المياه وشقّ الأمواج فما أن أُلقي سيدنا يُونُس إِلى البحر إِلَّا وابتلعه إِلى بطنه.

بدأ سيدنا يُونُس يفتح بصره فلا يرى إِلّا ظلاما دامسا، ويحرك يده فلا يكاد يستشعر إِلَّا جسد الحُوت الذي اِبتلعه، بدأ يُحدث نفسه أنّه ما زال على قيد الحياة فلم تخدش أنياب الحُوت له لحمًا ولم تكسر له عظمًا،

علم سيدنا يُونُس أن هذا بلاء من ربّه وأن اللَّه هو الوحيد القادر على إِخراجه من سجنه.

أغمض عينك وقل لي ماذا رأيت؟

ظُلمات صحيح؟ سواد دامس لا ترى منه ومضة نُور؟

كان هذا هو المشهد الذي رآه سيدنا يُونُس ظلمة شديدة، العين المبصرة فيها بلا فائدة، والرُّؤية تكاد تكون مُنعدمة.

بدأ سيدنا يُونُس يسمع صوتًا قادمًا من خارج بطن الحُوت الذي رُبما خلد إِلى النَّوم، فأوحى اللَّه إِليه " أنَّ هذا تسبيح دواب البحر "، وكأن سيدنا يُونُس قد أُعطي بهذا الصَّوت مفتاح زنزانته.

ليرفع سيدنا يُونُس يده لربه صارخًا في مكان لا يسمعه فيه أحد، فلن يأتي أحد لنجدته مهما علا صوتُه أو رفع نداءه، لن يُخرجه من ضِيقه إِلّا ربّه، ولن تفتح له أبواب الحُرية إِلّا بدعاء الله،

تمر السَّاعات والأيّام، يومًا يعقبه يوم وليس على لِسان سيدنا يُونُس إِلّا ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

لَولا الهامس الذي يأتي إلينا في وقت الحاجة أن الله بجوارنا، وأن جميع الطُّرق مُغلقة إلّا طريقه، وفكرة الاستعانة به في الأزمات، والهرع إِليه في وقت الضِّيق، واللُّجوء إِلى دُعائه عند تداعي الأسباب لولاها والله ما علمنا إِلى أيّ طريق كُنّا سنذهب وأيّ بابٍ كُنّا سنطرق، فطمئن قلبك الخائف وفؤادك القلق، وخاطرك الحائر، قل له بلسان اليقين ربك لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السَّماء، واهرب إِليه في وقت سعتك قبل وقت ضيقك، فرّ من حولك وقوتك إِلى حوله وقوته، يُغيّر من أجلك نواميس كونه، ويسلك لك في بحر الشدائد طريقًا يبسًا.

كان دُعاء سيدنا يُونُس هو المعول لهدم أَسوار سجنه، لم يرح لسانه عن دُعاء ربّه، ولم تهدأ شفتاه عن ذكر مولاه، لم يشتك عُبُوس الدُّنيا، ولا عناد القدر، بل رفع صوته الذي بالكاد يُسمع، إِلّا أن كلماته كانت لها مفعُول السّحر فقد اِخترقت همساته أمواجِ البحر لتصعد إِلى السَّماء بسرعة البرق، كان صوته الضعيف وأنينه أقرب إِلى مسامع الملائكة

من مسامعِ البشر، لتنادي اللَّه عزَّ وجلَّ فقالوا " يا ربنا إنَّا نسمع صوتًا ضعيفًا بأرض غريبة "، لم تستطع الملائكة تمييز صوت سيدنا يُونُس، ولكن اللَّه علم أن هذه اِستغاثة نبيّه يُونُس، لتأتي أَوامر الإنقاذ مُسرعة إِلى مَسامع الحُوت، لينطلق على الفور إِلى سطح البحر وكأنّه صارُوخ يخترق الغلاف الجوّيّ.

يخرج نبي اللَّه يُونُس من ظُلمات البحر إِلى أَنوار اليابسة، لتتجلّى عناية اللَّه له على هيئة شجرة من يقطين تحميه من أَشعة الشَّمس، فقد أصابه الإعياء بعد أَيّام طويلة عانى فيها من العطش، والجوع، وضيق التّنفس مع قلة نِسبة الأوكسجين، كان اللَّه قد أعدّ لسيدنا يُونُس مراسم تكريم على اِجتيازه لبلاء يقصم الظّهر، ليرسله اللَّه إِلى مائة أَلف أو يزيدون الجميع آمنوا.

بعد بلاء عظيم جاء له اللَّه بنجاح ساحق، فكُن على يقين أن بعد طُول ليل البلاء لابُد أن تُشرق شمسُ الفرج، وستمر أَيّام ضِيقك، وستغدو صفحة من ماضيك تذكرها لأولادك ستحدثهم بكل فخر أنك تجاوزت كل هذا الشَّقاء فقط بدعاء ربك ويقينًا في قلبك.

* منك تعلمت *

مِنك تعلمت ألا أُحاصر نفسي بِجبال اليأس، مهما اِتسعت صَحراء الابتلاء.

مِنك تعلمت أن لِلَّه جُنودًا لا يعلمها إِلّا هو، فَمن كان يظُن أن حُوتًا عِملاقًا يتحول إِلى غواصة، يجُوب البحر وفي بطنه نبي.

مِنك تعلمت أن اللَّه وحده هو من يختار الوُجهة لِعبده وهو من يُحدد طريق ذهابه، أعادوا القُرعة من أَجلك مرارًا ولكن كانت إِرادة اللَّه أن تلقى أنت إِلى البحر وليس غيرك.

مِنك تعلمت أن العبرة بِالخواتيم وأن البدايات ليست دائمًا صادقة، كل من على السَّفينة خُيّل لهم أنها نِهايتك وأنك ذاهب إِلى حَتفك لا محالة، ولكن كان لِقدرة اللَّه رأي آخر فالذي أُلقي في وسط أمواج بحر غاضب وابتلع في بَطن حُوت نجى، أمّا رُكّاب السَّفينة فلا نعلم أَنجُوا أم لا.

مِنك تعلمت أن السُّجون ليست من جُدران وحوائط فقط بل رُبما يكون سِجنك على هيئة سمكة عملاقة من لَحم ودم.

مِنك تعلمت أن البلاء لَيس نِقمة من اللَّه ولا غضب مِنه بل قد ينزل اللَّه البلاء على أَقرب الخلائق إِليه.

مِنك تعلمت أن رب مجهول في الأرض مَعرُوف في السَّمَاء كنت تَصرُخ في وسط البحر ولم تجد من يَنتشلك من وسط تلك الظُّلُمات المرعبة، ولِم يأت أحد لِنجدتك ولم يَفزع أحد لإنقاذك، كان صَوتُك الضعيف أَقرب لمسامع الملائكة أكثر من البشر فَضجّت الملائكة من أجلك.

مِنك تعلمت أن الأرض والسَّماء والبحار ملك لِلَّه وحده وأن ما فيها من دَابّة إِلّا وتسبح بِحمده، كان تَسبيح دَواب البحر مِفتاحًا لك لِلخروج من قفص الحُوت.

مِنك تعلمت أَلّا طريق لِلخروج من الأزمات إِلّا اللُّجوء إلى اللَّه والرُّجوع إِليه ولولا أن اللَّه أَلهمك دُعاءه لما خَرجت من بطن حُوتك إِلى يَوم القيامة قال تَعالَى ﴿ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾.

مِنك تعلمت أن ذكر اللَّه رُكن لا يُضام من أَحتمى به، ولا يشقى من التجأ إليه، مكثت لثلاثة أَيّام تذكر ربك و ما زدت عن قَولك ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

مِنك تعلمت أن الاعتراف بِالخطأ من شيم الصّالحين، وأن الاعتذار والتَّوبة ليست دليلا على ضَعفَ ولا مهانة بل هي قمة اَلقُوة.

مِنك تعلمت أَنّه لا يشترط مكان مُعين لِيجعلك قريبًا من اللَّه كُنت في بَطن حُوت في وسط أَمواج عَاتية ورغم ذَلك كنت أَقرب النَّاس إِلى اللَّه.

﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾

هل ضاقت بك طُرقك، وضلت بك سُبلك، أَتشعر بِاختناق شديد يُطبق على صدرك كأن الهواء قد خلا من الأوكسجين، وبدأت أنفاسك تتسارع، وأصبح تنفسُك غير مُنتظم، بدأ خافقك يدُق بِسرعة مجنُونة دون أيّ سيطرة منك، فكرت في أن تذهب لِشخص مُقرّب لك لعلك تجد لديه دواء لقلبك، فما أن طرقت بابه حتّى فُوجئت أَنّه مشغُول لا يستطيع لقاءك، أو ربما أعطاك موعدًا لا يُناسب قلبك المتلهّف لِلشّكوى، والمشتاق لِشخص يُجالسه.

فأقُول لك كف عن الرّكض في الاتّجاه الخاطئ، وأرح قدميك من السعي في طريق البشر، وشمّر عن ساعدك، وارفع يدك لله، فلن تجد من ربك تأجيلًا لِموعدك، ولا مللا من شكواك، ولا مكانًا مُحددًا لِسؤاله، ولن يُنهي جلسته معك حتّى تقُول أَنت بِلسانك قد اكتفيت.

كُن كسيدنا مُوسى كان دائم اللُّجوء إِلى الله، قريبًا من ربّه لِدرجة أَنّه كان كليمًا لله، فلا يحتاج لوسيط ولا وحي.

ولكن خلف تلك الشّخصيّة الرّائعة تكمُن شخصية أُخرى تُخبّئ في

جعبتها رجلا قد أثقل كتفه الابتلاء، ومر بمواقف تأط منها السّماء، وتخر منها الجبال هدا، فمن المُؤكد أنك سمعت كثيرًا من القصص عن الابتلاء، ولكن هل بدر إلى مسمعك مرة عن شخص ابتلي قبل ولادته!

فما كاد سيدنا مُوسى أن يولد إلا وأصدر فرعون قرارًا غاشماً بقتل جميع الأطفال، فقد تسربت إلى أحلامه رُؤيا أيقظته فزعًا من نومه لِيجمع الكهنة لعله يجد تفسيرًا لِرؤياه.

لينطق بعض كهنته قائلا: إن بنى إِسرائيل يتهامسون بنبوءة فيما بينهم على اِستحياء أَنّه سيولد من ذُرِيّة سيدنا إِبراهيم غُلاما تكُون على يده هلاك ملك مِصر.

أَصاب فرعون الرُّعب ودبَّ الخوف إلى قلبه، وأصبح ثائرًا كوحش مجنُون ليقتل الأطفال ويستحي النّساء، وأَخذ جُنوده يسعون في الأرض فسادًا.

وفى وسط تلك الفوضى كانت أم سيدنا مُوسى قد جاءها المخاض، لتضع طفلها الصغير، لتنظر نظرة خوف على وليدها فما هي إِلّا لحظات ويعلم جُند فرعون، وما هي إِلّا ساعات حتّى يأتوا لِيحاصروا البيت ويقتلون ولدها.

لِترفع أُمّ سيدنا مُوسَى يدها إِلى اللَّه، وتسأل اللَّه أن يُنجي ولدها،

لِيوحي اللَّه إِليها، أن أرضعي طفلك فقد تطُول فترة جُوعه، ودعي عنكِ الخوف والقلق، لِأنه سيعُود إليكِ في حُلّة الأنبياء على غِرار جده إبراهيم.

فاصنعي له صُندُوقا وألقيه في البحر، قال تعالى: ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾، بلا تردد تسرع أُم سيدنا مُوسَى لترمي بوليدها لِليمّ.

في أشدّ أوقات الحُزن عليك أن تتماسك، وألا تترُك الخوف يأكُل قلبك، وتوكّل على اللَّه وثق في قُدرته وحكمته، أَظهرت أُم سيدنا مُوسى قُوة لا مثيل لها وتوكل على اللَّه لا يُصدق، ويقينًا تُجن من عظمته العُقول، فكيف لِقلب أُم أن ترمي طِفلها في بحر بكل تلك السهولة، إنه اليقين.. اليقين يا فتى غمر قلب أم سيدنا مُوسَى وتحولت نبضات خوفها إلى ثقة ..والهموم إلى توكل.

فألقت بالصُّندوق إلى البحر لِيتهادى إلى قصر فرعون، لِتراه آسية فيلقي اللَّه محبّته على نبيّه فلا يراه أحد إِلّا وأَحبّه.

لتتحول آسية إلى درع حصين لسيدنا موسى، يحميه من بأس فرعون، لتهمس قائلة ﴿ وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ

عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَآ أَو نَتَّخِذَهُ وَلَدا وَهُم لَا يَشعُرُونَ ﴾.

﴿ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ عجبًا لتلك الكلمات اِختلف النَّاطق بها والغرض واحد، قالها العزيز لِيحمي بها سيدنا يُوسُف من العبوديّة والتشرُّد، وقالتها آسية لِتحمي سيدنا مُوسى من سيف فرعون.

في لحظات رق قلب السّفاح الذي كان من دقائق فقط يُريد قتل سيدنا مُوسى أصبح هو من يأمر جنده أن يُسرعوا على الفور لِلبحث عن مُرضعة تُرضعه، ليعود سيدنا مُوسى لِأحضان أُمّه على هيئة مُرضعة تُطعمه وترعاه ويربى على يدي فرعون.

فجأة تحول الخطر إلى أمان والسّلاح الموجه إلى صدر سيدنا مُوسى صار هو السّلاح المدافع عنه، فلا تحكم أبدًا على البدايات ولا تأخُذ بظواهر الأُمور، فقد خرج من بيت مُدع لِلألوهيّة نبيًّا من أولي العزم.

يمر قطار الأيّام كلمح البصر ليكبر سيدنا مُوسى ويبلغ أَشُده وأصبح على أتمّ الاستعداد لأن يسير في درب الدّعوة إلى الله، لكن كان يحتاج إلى ما يُحفزه وما يُجدد له وُجهته القادمة، فقد أَصبحت أيّامه في مِصر مَعدُودة.

دَخل المدينة لِيجد فيها رجلينِ يقتتلان، أحدهما من شِيعة فِرعون

والآخر من بني إِسرائيل، فأَخذ الذي من شِيعته يطلُب نجدته، ومدَّ يد العون له لِيكون نصيرًا له على رجُل بني إِسرائيل لكن سيدنا مُوسَى كان قد اِختار وُجهته، فقد أَراد أن يقف مع الحق، وأن يكون نصيرًا لِلمظلومين لا الظَّالمين، فوكز الذي من شيعة فرعون فخر قتيلا!

وقف سيدنا مُوسَى وقفة ندم على ما فعل، نعم هو أراد نُصرة مظلوم لكن لم يكن يُريد أن يصل الأمر للقتل، أو أن تتلطّخ يده بدم أحد من البشر سواء كان من بني إِسرائيل أو من حاشِية فرعون، لينطق بكلمات يعلُوها النّدم والحزن ﴿ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ﴾.

لم يُفوّت سيدنا مُوسَى لحظة ليرجع إلى ربّه مُعتذرًا، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

فإِيّاك أن يُضيع الشّيطان علاقتك مع الله، أو أن يُزيِّن لك أن ذنبك أَكبر من مغفرة ربك، ارجع إِليه مهما أذنبت، ولا تقطع الأمل في رحمته، ولا تمشي بِقدمك في طريقٍ يُبعدك عَنه.

في اللّحظة التي وقع فيها قتل الرّجل سارع سيدنا مُوسَى على الفور في رفع يده إِلى ربّه يطلُب المغفرة، بل وأخذ عهدا مع ربّه أنّه لن يستعمل تِلك القوة الَتي أَعطاه إِيّاها إِلّا للدّفاع عن الأبرياء ونُصرة المستضعفين

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنعَمتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيرا لِّلمُجرِمِينَ ﴾.

كان هذا البلاء بِمثابة عُود الكبريت الذي أشعل فتيل رحيل سيدنا موسى عن مِصر، فقد أصبح خائفًا في المدينة يترقب الأخبار وينتظر الحُكم الذي سيصدر عليه بعد قتله لرجل من شيعة فِرعون.

لم تمض أكثر من أربع وعشرين سَاعة لِيتكرر المشهد مرة أُخرى، لِيجد سيدنا مُوسى الرجل الذي نصره بالأمس قد وقع في مُشكلة من جديد، فهمّ سيدنا مُوسَى أن يبطش بِالفرعوني وينصر الرجل ولكن فجأة توقفت يده وتذكر العهد الذي أخذه مع ربّه.

فنظر سيدنا مُوسَى في حالة من الغضب للرجُل من بني إِسرائيل، فلمّا استشعر الرجُل غضب سيدنا مُوسَى، قال كلماتٍ هزت كيان سيدنا مُوسَى ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقتُلَنِي كَمَا قَتَلتَ نَفسَا بِالأَمسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارا فِي ٱلأَرضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلمُصلِحِينَ ﴾،

سمع القبطي تِلك المقالة أن سيدنا مُوسَى هو من قتل الرّجل بالأمس، فطار مُسرعًا لِيوصل الخبر إِلى مَسامع فِرعون، حتّى يثأر من سيدنا مُوسَى، لِيحرك فِرعون على الفور جنده حتّى يقتلوه.

لكن كانت إِرادة اللّٰه ترعى نبيه فقد جاء له رجُل من أقصى المدينة قد شقّ الطُّرق ليحذره أن سُيُوف جُنود فرعون تقترب منه، وأن مصر لم

تعد له وطنًا أمنًا.

في أشدّ أوقات الضّيق يُرسل اللَّه لك رسائل عبر أَشخاص، تكون بمثابة المسكن الذي يتناوله المريض لِيقاوم مرضه، وكأنّهم رحمة تنزلت لك من فوق سبع سماوات.

جاء الرّجل من أطراف المدينة من أَجل أن يُحذر سيدنا مُوسَى، لم يذكر القُرآن له اسمًا وإنما ذكر فِعله، رُبما هي إشارة من اللَّه لنا أنّه قد تُنسى الأسماء والوجوه، وإنما تظلُّ الأفعال محفُورة في الذّاكرة فمن المستحيل أن ينسى القلب أحَدًا أَحسَن إليه.

يخرج سَيدُنا مُوسَى في حالة من الهلع والذُّعر يترقّب كُل من حَوله، كان يقصد مدين دُون أن يعرف لها طريقًا ولا يدري أي اِتّجاه سيأْخذ وأي سبيل سيسلك لِيرفع يده إِلى اللَّه أن يهديه سَواء السبيل.

في أَحلك الظُّروف لا تسأل إلَا اللَّه ولا تُنادي إلّا ربّك، اِهمس له بنبضاتك وادعه بقلبك، وتوجه له بكلّ عظمة في جسدك، قل يا رب إِن تَخلّى عنّي خلقك فظني فيك أَنك معي، ويقيني أَنك نَاصري.

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلقَآءَ مَديَنَ ﴾ ، مع وقع تِلك الآية على قلبك ستشعر أن اللَّه هُو من اِختار مدين طريقًا لِموسى ووجهة عليه أن يقصدها، سار إِلى مدين ماشيًا لا دابّة تحمله، ولا ناقة تقصر عليه طُول الطريق، لم يجد

إلّا ورق الشّجر طعامًا، وأدميت قدّماه، وجفَّ حلقه من العطش، والتصقت معدته من الجُوع، وبعد رحلة من المعاناة وصراع من أجل الحياة وصل إلى مدين .. ليرد أحد آبارها.

لما خرج سيدنا مُوسى مِن مصر لم يكن خائفا من المستقبل، كان يقينه أنّ اللَّه سيختر له أفضل الطُّرق، ولن يتخلى عنه في ظُلمات الصّحراء، ومع عطشه وجوعه كان يُنادي ﴿ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾.

لما وصل إلى مدين اِختار له اللَّه أن يصل إلى بئر، أفضل مكان قد يُفكّر فيه أحد بعد سفر طويل، لينظر فيجد عند البئر صراعًا على الماء، وامرأتين قد تنحيا جانبًا فسألهمَا بلسان الحياء ﴿ مَا خَطۡبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴾، فأسرع سَيدُنا مُوسى لتقديم يد المساعدة، ليسقي لهما دُون اِنتظار لأجر ولا لِكلمة شُكر، لم يفعل الخير ليلقي به في البحر، بل فعل الخير وانتظر الأجر من اللَّه.

فكُن حريصًا دائمًا على فعل الخير، مهما كان بسيطًا أو في نظرك أقل من أن تُؤجّر عليه فلا تدر بأي عمل تدخُّل الجنّة، جبرٌ لخاطر مُنكسر، كتمانك لعيوب غيرك، ستركَ لِمساوئ أخيك، مسحة على رأس يتيم، كُلها أعمال تُؤجّر عليها دُون جُهد منك.

تولى سَيدُنا مُوسَى إِلى الظّل، لم يلتفت خلفه، ولم يُكثر معهُن الكلام،

بل كان فعله أكثر من قوله، ليجلس بعد يوم طويل وكأن جَسده المُرهق قد اِستغاثه أن يُريحه ولو قليلًا ليناديَ رَبّه داعيًا ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾.

كان يطلُب الطّعام لجوعه، كسرة من الخُبز يُقيم بها صُلبه، كان أَكرم الخلق في زمانه وكل ما كان يتُوق إليه شِق تَمرة يُقاوم بها الجُوع.

وبرغم شدّة البلاء وصعُوبة الأزمة التي يمُر بها، كان دُعاؤه يغلب عليه الشُّكر أكثر من السُّؤال، والحمد للّهَ أكثر من الطَّلب من اللّهَ.

فلا تُضيع مُناسبة دون أن تشكر اللّهَ فيها، احمده على بيت يقيك الحر والبرد، وعلى معطف قد اِكتسيت به ليمنع عنك قسوة الشّتاء، و قل الحمد لِلّهَ أن رزقك وطنًا أمنًا وجسّدا مُعافا، قل الحمد للّهَ على تتابُع النّعم وزوال النّقم .

لم يلبث سَيدُنا مُوسى كثيرًا حتّى لبّى اللّهَ نداءه وأجاب له دُعاءه، فلن يتركه يُنازع الجُوع دُون أن يبعث له بفريق الإنقاذ، لتأتي له إحدى الفتاتين تمشي على اِستحياء لِتخبره أن والدها قد جهز له مُكافأة على ما قام به من عمل نبيل مع بِنتيه، لم يكُن يُفكّر سيدُنا مُوسى حينما أقدم على مُساعدتهم أن ما فعله سَيرُد له عاجلا غير أجل.

تذكر دائمًا أن ما كان للّه يبقى ولا يُمكن أن يضيع في طيّات الزّمان،

وما قدمته من خير فمن المستحيل أن يُحذف من صحيفة حسناتك أو أن يَنساه ربُّك.

يدخل سيدُنا مُوسى على شيخ كبير قد انحنى ظهرُه ودب في شعره أثر الشّيب ليقص له ما عاناه فينطق الشّيخ مُطمئنّا لسيّدنا مُوسى وكأنها رسالة من الله قد أُجريت على لسانه ﴿ لَا تَخَفۡ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

رأي والد البنتين في سيّدنا مُوسَى شجاعة ليست في غيره وأمانة لا توصف، كان له بمثابة عُملة نادرة يصعُب العُثور عليه في مثل هذا الزّمان فلم يُفوّت الفُرصة بعد أن لمحت له بنته أن يستأجره، ليعرض عليه أن يتزوّج إِحدى بنتيه.

فجأة تحوُّل سيّدنا مُوسى من ضائع لا مسكن ولا مأوى ولا طعام ولا زوجة، بدعوة واحدة رفع فيها يده إلى الله، غيّر له الله حاله، فجعل خِدمته النَّبيلة التي قدّمها دُون أجر هي الدّواء لعلاج ما مرّ به من بلاء.

فاترك الأمر لربك واعلم أَنّ كلّ أقداره خير حتّى ولو كانت مُؤلمة، ومنعه خير حتّى لو أوجعك، وتذكّر جيّدًا إن أصابك بلاء أو آخر الله عنك دُعاء أن تتأدّب مع ربّك فلا تتهمه بالتّأخير، وتحامل على نفسِك وانتظر ففرجه قريب، واعلم جيّدًا إن هان خاطرك عند البشر فإنّه عند

اللَّهَ لَا يُهون.

تنقضي عشر سنوات في لمح البصر، وفي إحدى اللّيالي المظلمة وهُو في طريقه بجوار جبل الطُّور ضلّ الطريق أم يجب أن أقُول بل وجد أخيرًا الطريق بعد سنوات عديدة من البحث ليرى نارًا مُشتعلة من بعيد.

يطلُب سيدُنا مُوسى من أهله الانتظار حتّى يذهب لتلك النّار ليأتي منها بقبس أو رُبما يجد بجوارها من يدُله على طريق العودة ﴿ إِذ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهلِهِ ٱمكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَستُ نَارا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنهَا بِقَبَسٍ أَو أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدى ﴾، لم يكن يعلم سَيدنا مُوسى أنّه مُقدم بخطواته على أعظم حدثٍ في تاريخ البشريّة، وعلى أرض صارت من أفضل بقاع الأرض، ليتفاجأ بمشهد عجيب أقرب إلى أفلام الخيال العلمي، لكن المفارقة الوحيدة أنّه كان واقعًا وليس نسجًا من خيال كاتب ولا حبكة دراميّة لمخرج من خلف الكاميرات، ليرى شجرة خَضراء مُشتعلة فلا النّار تأكُل الشّجرة ولا الشّجرة يظهر عليها علامات الاحتراق.

وفي لحظة اِختلاط المشاعر خوف، ودهشة، وحيرة، سمع نداء مُطمئنًّا يقُول له ﴿ إِنِّيٓ أَنَا رَبُّكَ فَاخلَع نَعلَيكَ إِنَّكَ بِالوَادِ ٱلمُقَدَّسِ طُوى ﴾، يخلع سَيدنا مُوسى نعله في شُعُور لا يُوصف، كان سيدنا مُوسى على أتمّ اِستعداد لأن يُقايض الدُّنيا بأجمعها في مُقابل أن يُطيل الدّقائق ليسمع هذا النّداء لوقت أطول، كان الخوف يُسيطر عليه فأراد اللَّه عزَّ

وجلَّ أن يكسر حدّة الموقف، ويقلّل من شدّة التّوتُّر لدى سيّدنا مُوسى ليسأله من باب التّسلية ، ﴿ وَمَا تِلكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾، هُنا انطلق لسانه المُكبل، وبدأت عُقد لسانه تنفك، وجسده الذي كان ينتفض خوفًا، أَصبح ثابتًا كالجبال الرّواسي ليقول ﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخرَىٰ ﴾.

تخيّلتُ للحظات أن لو فُتح لسيّدنا مُوسَى المجال لأخذ يذكر في مآرب عصاه أيّامًا وليالي حتّى يُطيل لقاءه مع اللَّه.

فإيّاك أن تستعجل في اِنهاء لقائك مع ربّك، تخيّل حينما تأتي الصّلاة كأنّك مُقبل على وادي طوى، وحين تسجُد كأنّك بجوار طُور سيناء، واخلع هُمُومك على باب صلاتك كما خلع مُوسَى نعليه، وادع ربّك بكلّ ما تُريد كأنّك تصف مآرب عصَا مُوسى.

يأمُر اللَّه نبيّه أن يُلقي عصاه فأخذت تهتز فجأة كأن نفرًا من الجن قد تلبسها لتتحوّل من عصا جامدة لا روح فيها إلى ثُعبان عظيم لتزداد دقّات قلبه ولا يكاد يشعُر بقدميه ألا وهي تُهرول بعيدًا وتبتعد بِسرعة جُنونيّة، لم يلتفت خلفه ولم يُشح بنظره لِلوراء حتّى سمع نداء ربّه ﴿ أَقبِل وَلَا تَخَف إِنَّكَ مِنَ ٱلأَمِنِينَ ﴾ ، لِيعود سَيدنا مُوسى مُستمعًا لنداء ربّه خاضعًا لأمره، ليعطيه ربُّه هديّة أُخرى ﴿ٱسلُك يَدَكَ فِي جَيبِكَ تَخرُج بَيضَآءَ مِن غَيرِ سُوٓءٍ﴾ ، فيدك الأقرب للسُّمرة إن وضعتها في

جيبك ستخرج كقمر يتلألأ في ليلة مُظلمة.

بقي أمر واحد أن يُذهب عنه ربّه الرّوع والخوف، فكيف يترك اللّه قلب نبيّه فزعًا دُون أن يُطمئنه، فقال تعالى ﴿ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِ ﴾.

خُذ سيّدنا مُوسى قُدوتك إن أصابك شيء من الخوف، أو الوجل، ضع يدك على قلبك وقل اللّهمّ إنّي أدرأ بك خوفي، وأعُوذ بك من قلقي، أَستند بيقيني على قُوتك، وأستعين بفرجك على ضيقي وبشفائك على مرضي، وبمغفرتك على ذنبي، وبرحمتك على همّي.

كان التّكليف من ربّه ينتظره، فهو على وشك العودة إلى عدُوه الأوّل، قال تعالى ﴿ اذْهب إلى فِرْعوْن إنَّه طغى ﴾، لم يُفوّت سيدنا مُوسى تلك الفُرصة فأخذ يسأل ربّه بكلّ ما يُريد، لم يدع حاجة في نفسه إلّا وطلبها، ولم يترك أمنية إلّا ورفع يده بها لربه.

لذلك نحن دائماً بحاجة إلى الدُّعاء، بحاجة إلى تلك التّمتمة التي تصدُر في وقت ضعف، نُزيح بالدُّعاء طُيُور الهم قبل أن تُعشّش في قُلوبنا، نَستُر بثوب الدُّعاء جسدنا الذي أضحى مُمزقا من أعباء الحياة، ونواري به سوأة أحزاننا، التي أخذت منّا مكانًا عميقًا في قُلوبنا فلا هي تتركنا لننجو ولا هي تُهلكنا.

رأى سيدنا موسى في الدُّعاء رُكنًا آمنًا لجأ إليه، وحديقة مُزدهرة مُمتلئة براسخي الإيمان، وجسرًا واصلا بينه وبين اللَّه ليلهج لسانه قائلا ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي هَٰرُونَ أَخِي ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴾.

هُناك مرض يُسمّى حُبُّ النّفس، يقتُل كُلّ من يُصاب به، ويدمّر كُلّ من حوله كإعصار يمحُو كُلّ ما يقف في وجهه، اِقتلع سيدنا مُوسى هذا المرض من جُذوره فلم يدعه يتغلغل إِلى قلبه، ولم يعرف لفؤاده طريقًا.

كان بمقدوره أن يطلُب ويتمنى لنفسه فقط ولا ينظُر لأخاه، ولكن سيّدنا مُوسى فعل غير ذلك، لقد وجد في أخيه عُكّازًا قويًّا يستند عليه، ولسانًا فصيحًا يُعوضه عن عثرة لسانه، فجاءت له إِجابة دعوته في وقتها، لم ينتظر مُرُور السّاعات، ولا اِنقضاء الأيّام.

شُعُور لا يُعادله شُعُور، وراحة لا تُقايض بنعيم الدُّنيا بأكملها، لحظة سماع سيّدنا مُوسى لقول ربّه يُناديه ﴿ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾، فعن كمّ اللُّطف في هذه الآية، وعن جمال هذا الشُّعور حينما يُلبّى للإنسان رغباته، ويجاب له ما كان يتمنّاه.

لذلك ما هممتُ يومًا بتسجيل خاطرةٍ عن الدُّعاء إلّا وأخذ الشّيطانُ

يبُثُّ سُمُومهُ لعقلي، قائلاً لي كفّ عن نسج الأَوهام لقوم قد خذلتهم الحياة وأفلتت أيديهم في مُنتصف الطّريق فما أوشكتُ أنْ أترك قلمي وأتخلى عن خواطري إلّا وسمعت هذه الآيَة ترنُّ في أُذُني ﴿ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ فأستعيذ من وساوس شيطاني وأقُولُ لنفسي يومًا ما ستشعُرُ بما شعر به نبيُّ اللَّه مُوسى حينما حُقّقت له أمانيه وأستجيب لدعواته.

فانتظر يا فتى ولا تبرح حتّى تبلُغ فمتمسك بحلق باب ربّه غيرُ مخذُول، واعلم أَنّ ربّك إن فتح باب خزائن رحمته، أعطى بلا سُؤال ومنح بلا طلب فبعد إجابة دعوات سيّدنا مُوسى أخذ اللَّه يُنعشُ ذاكرة نبيّه بكيف كان يرعاهُ دُون أن يطلُب، وكيف حماهُ دُون أن يسأل، ليأخذ بيده في جولةٍ في أرجاء الأعوام الماضية ليقصّ لهُ كيف صدّ عنهُ هجمات فرعون، وكيف حوّل من أجله الخطر إلى أمان.

وأنا أكتُب تلك الكلمات دار في عقلي العديد والعديد من الأسئلة،

إذ كيف كان شُعُور سيّدنا مُوسى حينما سمع النّداء من ربّه يقُول له ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾

وكيف كان شُعوره حينما قال الله له ﴿ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾

وكيف كان شُعوره حينما قال الله له ﴿ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي

وَلِتُصنَعَ عَلَىٰ عَينِيٓ ﴾

وكيف كان شُعوره حينما قال الله له ﴿ وَاصطَنَعتُكَ لِنَفسِي ﴾

فاحزم يا مُوسى متاعك، فمدين لم تعد لك مقيل وحان وقت الرحيل، فمصر التي خرجت منها مُطاردا وحيدًا في صحرائها، تتوسّد بالأرض، وتلتحف بِالسّماء، ها أنت ذا تعُود إِليها في ثياب الأنبياء.

اذهب إِلى فرعون إنّه طغى ولا تخف من جبرُوته ولا قُوته فإنّي معكُما أسمع وأرى ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسمَعُ وَأَرَىٰ ﴾.

قُلُوب البشر ضعِيفة هشّة تحتاج دائمًا إِلى يدٍ دافئةٍ تُوضع عليها، تُطمئنها وتزيل ما عليها من تراكمات الزّمان، من أحزان وخوف.

فلا يعقد الشّيطان على قافية رأسك ويدخل لخاطرك خوفًا يُهلكك، الهلع والفزع والخوف أمر طبيعي، وفطرة في النّفس البشريّة، لكن أتعلم ما الغيّر طبيعي أن تعلم أنّ اللَّه بجوارك وبعد ذلك تُحدثك نفسك بشيء من الخوف.

انِطلق سيدنا مُوسى ومعه أَخوه هارُون ليدخلا على فرعون بثبات انفعالي ويقين لَا يُعادله يقين، ليقولا ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العَٰلَمِينَ ﴾.

تجاهل فِرعون خطابهم بكلّ كبر، وأخذ يمُن على سيّدنا مُوسى بنعمه عليه في مُحاولة ميؤُوس منها لاستجداء تعاطُف سيّدنا مُوسى وجعله

يميل عن دعوته، ﴿ قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدا وَلَبِثتَ فِينَا مِن عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلتَ فَعلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلكَٰفِرِينَ ﴾ .

أخذ سيدنا مُوسى نفسًا عميقًا ليرد على اِتّهامات فِرعون، لم يُنكر سيدنا مُوسى أنّه قتل، ولم يتبرّأ من فعلته، بل كان صادقًا مع نفسه ومع ربّه قبل أن يكُون صادقًا مع فرعون ﴿ قَالَ فَعَلتُهَآ إذا وَأَنَا مِنَ ٱلضَّآلِّينَ فَفَرَرتُ مِنكُم لَمَّا خِفتُكُم فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكما وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلمُرسَلِينَ ﴾.

أصاب فرعون بعضا من اليأس حينما رأى ثبات سيّدنا مُوسى، وبدأ توتُره يزداد شيئًا فشيئًا، فأراد أن يُغيّر الحوار في مُحاولة أُخرى لقلب الطّاولة فقال بِاستخفاف "وما ربُّ العالمين" ؟

هُنا بدأت " أُوتيت سُؤلُك " تتحقّق فانطلق لسانه، وثبت فُؤاده، وأصبحت قدماه لها قُوّة كفيلة لأن تُثبت الأرض عن دورانها، فلا خوف يُزعجه، ولا لعثمة تُعيقه، لينطق لسانه قائلا ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرضِ وَمَا بَينَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾.

فما كان من فرعون إلّا ردّ مُتهكّما ﴿ قَالَ لِمَن حَولَهُ أَلَا تَستَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُم وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلأَوَّلِينَ ﴾.

أمر مُثير للضّحك وموقف هذلي حينما يرتدي شيطان دور الواعظ، ويقف سفيه على منبر الدّعوة مُحاولا التّقليل من قدر شخص في مُحاولة

بائسة لنفي حقيقة ولإثبات وهم ليظل محتنكا لأتباعه، فلا طائل من قوم أناخوا رُؤوسهم وأذعنوا لِجلّاديهم.

يحدُث أن ترى نظرة الهزيمة في عين عدوك قبل أن تدخل معه في معركة، ففرعون كان يرى في سيّدنا مُوسى طِفل نُبوءته الذي سيهلك على يديه ملك فرعون.

كان سيدنا مُوسى عقلانيًا في رُدوده، فلم تستفزه سُخرية فرعون، ولم يستشط غضبًا من اِستهزائه، ولم يخف من تهديداته، فقد ألقى اللَّه سكينة على قلبه وبردًا على فُؤاده.

كُلّ ما طلبه أن يُعطيه فرعون فُرصة أن يُثبت له صدق رسالته، وحقيقة نُبوّته، ليلقي سيدنا مُوسى عصاه، لتتحوّل لثعبان عظيم ويده تخرُج ناصعة البياض.

باتت حُجج فرعون تتضاءل، وأصبح مهزُوز القدمين مُتوتر الأعصاب، فماذا سيقول لقومه ردًّا على مُعجزات لا مجال للتّشكيك فيها، لم يجد إلّا أن يعُود لِلسُّخرية والتّهكُّم ومحاولة رمي التُّهم جُزافا، لم يجد كذبة يختلقها إلّا أن يتهم سيدنا مُوسى بالسّحر، ﴿ قَالَ لِلمَلَإِ حَولَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيم ﴾.

بدأ يلتفت لحاشيته يأخُذ منهم المشورة، فقد نفدت منه حيله وأصبح

فارغ الأفكار، ليقترحوا عليه أن يجعل لهما موعدًا يأتي لهُم فيه بجميع سحرة مصر حتّى يُظهر لهم أنّ ما جاءوا به ما هُو إِلَّا خُدعة يُمارسها السّاحر ليجذب الأنظار إِليه ويدفع الجمهور للتّصفيق من أجله.

جاء يوم الزّينة وجلس فرعون مُنتظرًا من سحرته أن يهزموا مُوسى هزيمة ساحقة، ليعلوا بعد ذلك منبره ويخطب في قومه أنّه فَضح كذب موسى.

فلا تنزعج إن أُصبت ببعض الاهتزاز النفسي من فرط الثقة التي يتكلّم بها أَصحاب الباطل، لا تشك بنفسك، ولا تتهم إِيمانك، فرعون كان يعلم أنّه مُجرّد بشر، لا هُو إله ولا ملّاك، ولكن كان يتكلّم بثقة كفيلة بأن جعلت من حوله يصدقون أنه إله.

اِجتمع السّحرة حول فِرعون، لم يأتوا ليدافعوا عن قضيّة، أو أن ينصُروا مذهبًا، بل جاءُوا طامعِين في حِفنة من المال ومناصب زائلة، كانت بادرة التّحدّي لهم ﴿ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾.

هُنا بدأ شيء من الخوف يتسرّب لقلب سيّدنا مُوسى، ولكن لم يلبث كثيرًا حتّى طمأنه ربُّه ﴿ قُلنَا لَا تخف إِنَّك أَنْت الأعْلى ﴾ ، فأخذت عصا سيّدنا مُوسى التي اِنقلبت إِلى أفعى تبتلع كُلّ ما القوه سحرة فِرعون.

مُذهل كيف ينصُر اللَّه من تمسّك به، ومن لجأ إليه، وكيف يخذُل اللَّه من مشى سالكًا طريقًا غير طريقه، وولّى مُدبرًا عن بابه، وضلَّ عن نهج اللَّه سُبحانه، فمهما ظهرت له بوادر النّصر، فلن يمكُث طويلًا حتّى يرى خذلانًا من الجهة التي عصى اللَّه من أجلها.

مشهد غيّر كُلّ التّوقُّعات، وقلب كُلّ الموازين، فالسّحرة الّذين جاءُوا لِنصرة فِرعون أصبحوا في صفّ سيّدنا مُوسى.

اِزداد غضب فرعون وكاد أن ينفجر كبركان مُستعر، توعّدهم بالعذاب وتقطيع الأيدي وجلد الظُّهور، لكن كان الإيمان قد تسرّب إلي قُلوبهم ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴾.

اِنقلب السّحر على السّاحر، ففرعون لم يخطُر لباله لوهلة أنّ السّحرة الذي تعب في جمعهم من جميع أقطار مصر بيده، لم يكونوا إلّا وسيلة لِنصرة سيّدنا مُوسى، فأصبح الوضع خطرًا والأجواء باتت مُقلقة، فلن يرضى فِرعون بهزيمة نكراء على يد رجل من بني إسرائيل، فأوحى اللَّه إلى نبيّه أن يُغادر مُسرعًا هو ومن معه﴿ وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴾

إِذا كُنت مع ربّك لا تخشى من موج بحر عاتي، ولا ظُلمة لَيل دامس،

لن يقدر عليك عدُو، ولن يسطُو على حُرّيّتك ديكتاتور، فإذا فوضت أمرك لله فسلّم أنّ قدرك بيد أمينة.

هكذا فعل سيّدنا مُوسى، رمى بِثقال حُمُوله على ربّه، رأى جيشًا يُحاصره هُو ومن معه وعلى رأس الجيش فِرعون، الجميع فقد الأمل، وبدأ سدُّ اليقين لديهم ينهار إِلّا سيدنا مُوسى الذي صرخ عاليًا كلّا ما زال هُناك ملجأ والأمل لم ينته ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾.

تذكر ما ضاقت إلّا فرجت، ولا يُوجد نفق مُظلم إلّا وفي نهايته نُور يُضيء لك عتمتك، ووراء سدّ الابتلاء هُناك نهرٌ من الفرج يُوشك أن يفيض، فقط أدعُ ربّك اسأله سُبحانه بِلسان واثِق، فلا تدعُو وبداخل قلبك صوتا يقُول لك لن يستجيب فهذا دُعاء منقُوص، كرّر دُعاءك كُلّ يوم ألف مرّة، واذهب إِليه بعيون مُحمرة من البُكاء، واعرج إِليه بِفؤاد قسا عليه الزّمان، قلّ يا رب وجهت وجهي إليك وألجأت ظهري إِليك، لا ينكسر من كُنت رجاءه، ولا يخيّب من كُنت عونه، أمنت بك فكيف لي أن أُنازعك، ووحدتك فكيف لي أن أُدبر معك، راض بما نزل بي، وشاكر لما قُضي لي مِنك، لَا شكوَى لي إلّا إليك، ولا رجاءً إلّا لك، اِرحم قلبًا بُهت من الخذلان، وفؤادًا ذبل من التّخلّي، وخاطرًا أوشك على الموت من الانكسار، فرحماك، ثُمّ رُحماك، ثُمّ رُحماك.

كانت صرخات سيّدنا مُوسى المدوّية باستغاثته بربه كفيلة أن يخرق

اللَّه من أجلها العادات، فأوحي اللَّه علي الفور لنبيّه ﴿أَنِ ٱضرِب بِّعَصَاكَ ٱلبَحرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرق كَالطَّودِ ٱلعَظِيمِ﴾.

قد لا تستطيع تخيّل هذا المشهد ورُبما لا يسعني أن أصف لك مدى روعة المنظر أو أوصل لك كيف لبحر أن يتحوّل إِلى جبل من ماءٍ، وكيف لأرض مُبتلّة من ماء البحر أصبحت طريقًا يبسا، وكيف لعصا فعلت ما لا يُمكن لِأحدث المعدّات أن تفعله، وكيف لِدعوة نبي حولت بحرًا بِأسماكه إِلى جُندي مُخلص يرعى سيده من جيش طاغية ظنّ أنّه إِله.

فكم هو مُذهل سيّدنا مُوسى، لا تكاد تغمض عيناك معه حينما تقرأ قصّته إلّا ووجدت مشهدًا له مع الدُّعاء، وحكاية مُبهرة مع اللُّجوء إِلى اللَّه، فمن كان يظُن أنّ بقليل كلمات اِستطاع أن يُدمّر جيشًا بِأكمله في لمح البصر، كونُه كليم اللَّه لم يكن لقبًا من فراغ، ولا مُجرّد رتبة نالها نبي تسبق فقط اِسمه.

كان سيدنا مُوسى حريصًا على ألّا يطلُب من أحد سوى من اللَّه لا يشغله مُستحيل، ولا تعوقُه أسباب، حتّى حينما سأل أن يرى اللَّه عزَّ وجلَّ، لم يُفكر في كينونته البشريّة، ولا كيف سيتحمّل بجسده الآدمي رُؤية أنوار ربّه، كُلّ ما كان يُهمّه أن ينظُر لمولاه.

فبذكريات لقاء ربّه الأوّل نادى سيّدنا مُوسى ربّه أن يرزُقه رُؤية

وجهه﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾.

رغم اِستحالة الأمر ليس من ناحية اللَّه سُبحانه بل من ناحية مقدرة سيّدنا مُوسى على تحمّل رُؤية اللَّه عزَّ وجلَّ، كان منعُه خير له، فلا يتحمّل بشر رُؤية الله فرُبما هلك من شِدّة الموقف.

فكما ذكر الإمام مُحمّد بن جرير الطبري في تفسيره عن أبى بكر الهذلي قال: لما تخلّف مُوسى عليه السّلام بَعد الثّلاثين، حتّى سمع كلام اللَّه، اِشتاق إِلى النّظر إِليه فقال: ربّ أرني أنظُر إِليك!

قال: لن تراني، وليس لبشر أن يُطيق أن ينظُر إلي في الدُّنيا، من نظر إلي مات! قال: إِلهي سمعت منطقك، واشتقّت إلى النَّظر إِلَيك، ولأَن أنظُر إِليك ثُمّ أمُوت أحب إِليّ مِن أن أعيش ولا أراك.

فلم يحرمه اللَّه من شرف المحاولة، ولم يمنعه من التّجربة، فتجلّى ربنا لِلجبل لكن الجبل لم يتحمّل التّجلّي ودُكّ، تخيّل جبل كان اِرتفاعه مئات الأمتار صار أرضًا مُستوية.

رأى سيدنا مُوسى هذا المشهد لم يستطع تحمله، ولم يتمالك أعصابه حتّى خرّ مغشيًّا عليه.

كان منع اللَّه له من رُؤيته خَير له، فلم يكن جواب سُؤاله هُو الصّواب

فرُبما لو اِستجاب اللهُ له لمات من فوره، كانت للشّيخ الشّعراوي كلمات من ذهب يقُول عن هذا الموقف " إذَا كان مُوسى صُعق من رُؤية الجبل وهُو المتجلِّي عليه فكيف لو رأى المَتجلِّي".

﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ ﴾ ، تذكر جيّدًا حينما يُؤخّر اللهُ عنك عطاء، أو يحرمك دُعاء، موقف سيّدنا مُوسى مع ربّه لو أُجيب له دُعاءه لهلك، فلربما كان جواب دعوتك فيه هلكة لك.

لما آفاق سيدنا مُوسى قال سُبحانك، رُبما لأنه راجع نفسُه لوهلة أنّه كان من الأفضل لو اِستمع لنصيحة ربّه من البداية، نحن أيضا نحتاج لأن نستفيق أن نُدرك أنّ ربنا لا يكره لنا خيرًا، ولا يمنع عنّا إلّا شرًّا، فإذا تعلّق الأمر بربك يا فتى فتأدّب، قل سُبحانك وعضّ على جراحك وامض، واصبر على ما جهلته من أقدارك، ولا تتحسّر على ماض ولا تبكي على ما فاتك واطوي صفحات الأمس، فما أُعطيته هُو الخير وما حُرمته هُو الشّر، رُفعت الأقلام وجفّت الصُّحف.

* منك تعلمت *

مِنك تعلمت أنّه لَيس كُلُّ فَقد شرّ ولا كُل بُعد فِراق، فقد يكُون الفقد هُو عَين العطاء ورُبما كان البُعد هُو أشدُّ الأسباب لِقرب لا مثيل له.

مِنك تعلمت أنَّ الغائب لابدّ يومًا أن يعُود مهما طالت سنوات البُعد فحتّما تتلاقى الأجساد.

مِنك تعلمت أنَّ وراء ليالي البلاء المظلمة هُناك فجر سينير الأُفق وبعد محن تقسم الظّهر لابد من عطاء يُنسي قسوة الأيّام.

مِنك تعلمت أنَّ من يرد اللَّه به خيرًا يُلقي محبّته في قُلُوب من حوله فالحبّ مفتاح القُلوب، ألقى اَللَّه عليك محبّة جعلت من أسّيه اِمرأَة فِرعون سببًا لِنجاتك مِن خطر مُحدق.

مِنك تعلمت أنَّه لا يهُم في بيت من نشأت وعلى يد من تربّيتَ فمن أراد اَللَّه هدايته اِجتباه حتّى ولو كان إِبليس من ربّاه، ومن يرد أن يُضلّه سيضيق صدرُه كأنّما يصعّد في السَّماء حتّى ولو ربّاه جبريل.

مِنك تعلمت أنَّ التّاريخ يُخلّد الأفعال لا الأسماء، والمواقف لا الأشخاص جاء رجُل لم يذكر القُرآن لنا له اسماً ولم يصف له شكلا وإنّما خلد فعله أنّه كان سببًا في نجاة نبي.

مِنك تعلمت أن أُقدم يد المساعدة لمن عرفت ومن لم أعرف، فلا أنتظِر شُكرًا ولا أَطلُب أجرًا، قدمت المساعدة لِلفتاتينِ وكُنت في أشدّ النّاس حاجة لمن يمُد لك يد عونُه بِكسرة خُبز أو بمذقة لبن.

مِنك تعلمت أنّ صنائع المعروف تقي مصارع السُّوء، فمن كان يظُن أنّ مُساعدة كانت لوجه اللَّه تكُون سببًا لأن يُوفّر لك سكنًا وعملا وزوجَة صَالحة.

مِنك تعلمت أن أستغل مواقيت القُرب من اللَّه، فلا أحرّم نفسي من السُّؤَال، ولا أمنع نفسي من الطّلب، كُنت تتمنّى على ربّك فما من حاجة إلَا وطلبتها ولا سُؤال إلّا ودعوت به.

مِنك تعلمت أنّ لِلَّه من عِباده أقوام يستخدمهم ولا يستبدلهم، يبتليهم ليقرّبهم ويحرمهم لِيرفع من قدرهم بعد سنوات من البلاء وأعوام من الضّياع، جاء لقاء ربّك وكأنّه تعزية عن كُلّ ما مررت به.

مِنك تعلمت أنّ كُلّ الخلائق بين ضفتي هذا الكون تحت إِمرة اللَّه سُبحانه الجميع جنده وطوع أمره، فمن كان يظُن أنّ عصا كانت لك

سِلاحًا وبحرًا صار لك دِرعًا.

مِنك تعلمت أنّ بعض الأدعية من الأفضل ألَا تُجاب وأنّ منعها هُو تمام النّعمة فلو اِستجاب اللَّه لِدعائك حِينما سألت رُؤيته لكنت هلكت وأصبحت في عداد الموتى.

مِنك تعلمت أن أكون واقعيا في كلِّ شيء إلّا في الدُّعَاء أطلُب من اللَّه المستحيل وأرفع سقف طُموحاتي، لا تشغلني أسباب ولا أقل لن يَستجِيب، فإن اللَّه لِيستحيي من عبده إِذا رفع إِليه يديه بالدُّعاء، أن يردّهما صفرًا.

﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَردا﴾

مع تطور العلم البشري وقدرة الإنسان على إيجاد العلاج لكثير من الأوبئة التي كانت في السَّابق تَفتك بملايين من البشر إلا أن الإنسان ما زال يقف عاجزًا أمام كثيرٍ من الأمراض التي لم يستطع أن يجد لها علاجًا!

فبرغم التقدم التكنولوجي إلا أن بعض الأوبئة والأمراض كانت أقوى من قُدرة البشر، كالإيدز والسُكر وغيرها، حتى العقم لدى الرجال أو النساء ورغم ما توصل له الإنسان من محاولات لا تتعدى التجربة فقد تُصادف وتنجح وقد تبُوء بالفشل كأطفال الأنابيب، وكعمليات الحقن المجهري.

وكما هي عادتك في طرح الأسئلة فلقد تعودت منك حينما أخرج عن مسار الكتاب أن تردني وتقول لي لما تخبرني بتلك الأمور؟

فأقُول لك مهلا، يُصاب الإنسان بالعديد من أنواع الحرمان في تلك الدنيا، فيجد شخصًا فيه كل ما يتمناه ويحرم منه في النهاية، يجتهد طالب في المذاكرة ليصل إلى كلية أحلامه ولا ينالها في نهاية المطاف.

الحرمان قاسٍ يا فتى أقسى من أن يُوصف في سُطور، أو أن يُحكى في صفحات وأشده على القلب وطئًا، أن يُحرم الإنسان من أن يرى طفلا من صُلبه يكون له عكازًا إن تخلت عنه قوته، وكتفه إن خانته صِحته، حُرم سيدنا زكريا من الولد، كان بلاء من ربه أن يمنع عنه الله نعمة الإنجاب، سنوات وسنوات وها قد أصبح نبي الله شيخًا كبيرًا تجاوز السبعين وأصبح أملُه في الإنجاب منقطعا.

كل الأسباب من حَوله تُشجعه على اليأس وتأخذ بيده لفقد الأمل، بيض شعره، وكبرُ سنه، وانحناء ظهره، وأمراته التي باتت عاقرًا، فكيف له أن يُرزق بولد؟

اليقين يا فتي هو نُقطة التحوُل في حياتنا، الصوت الذي يصرخ بداخلك رغم انعدام الأسباب يقولك لك لا تيأس، هي مستحيلة عليك لكن هينة عليه، اجعل مُواساتك لنفسك دائمًا أن البلاء والمحن ما هي إلا بوابة لنعم لا تُعد ولا تحصى، يقطع الله بك صحراء المحن ليأخذ بيدك إلى جنّة نعمه.

لولا بلاؤه لما رَجعت إليه وما رَفعت يدك نحوه، يسقيك من كأس المحن لِتتذكر أن لك ربًا، ويُغلق في وجهك جميع الأبوابِ لِتعلم أنه لا يوجد وجهة خير من وجهته، فلا تُجهد نفسك في السّير في طريقٍ لا يؤدى إليه، ولا تُتعب قدمك في المشي نحو غيره.

اذهب إليه بما تبقي منك وقل له يا رب جئتك بصوتٍ منكسرٍ، هلكت روحي بداخلي، وفرت منى قوتي، أُناديك بكل عظمةٍ في جسدي، وأناجيك بكل شريانٍ في بدني، لا يضام من كنت نصيره، ولا يخذل من كنت وكيله.

اجعل حَالك مع الله الدُعاء، أطرق بابه في الليل ألف مرّة ولا تغادر تلك الأعتاب حتى تنال مقصدك، كان الدعاء دواء سيدنا زكريا لعلاج ما أفسده الزمان، حتى جاءته رسالة من الله، ألا ييأس فتلك الطُرق بالدُعاء ستقصر وإن طالت وتلك الهُموم ستزُول وإن ثَقلت.

ليدخل سيدنا زكريا على السيدة مريم فيجد عندها طعامًا ولكن ليس الغريب في وجود الطعام بل الغريب أن يكون طعام الشتاء في الصيف أو طعام الصيف في الشتاء.

لم يتمالك لسانه ولم يستطع أن يمنع نفسه من السؤال حتى يُطفأ ثورة الأسئلة التي تدُور في ذهنه، ﴿ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾، كانت كلمات السيدة مريم نغزة في قلب سيدنا زكريا، تقول له حاول من جديد، الأمور لا تحسب برجلٍ وامرأة، رجل كبر في السن وامرأة لا تقوى على الإنجاب كل تلك العوائق أمام قدرة الله لا شيء، فقُدرة الله جعلت من مريم الفتاة التي لم يمسها بشر تحمل بولد، فتوضأ سيدنا زكريا على الفور وأسرع

إلى محرابه وكبر لصلاته، ونادى ربه ﴿ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴾، لم تنتظر الملائكة أن يفرغ سيدنا زكريا من صلاته حَتى تزف له البشرى فربه قد اِستجاب لدعوته، فنادته الملائكة وهو في صلاته وكأن الملائكة فرحت لفرح سيدنا زكريا، ﴿ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

تذكر دائمًا أن عوض الله وجبره لا يأتي أبدًا عاديًا، فلا يُعطيك ما طلبت فقط، بل يُغدق عليك من نعمه، كان سيدنا زكريا واضحًا في دعوته، صريحًا في طلبه، أن يُرزق بولد، لم يشترط على ربه، ولم يُوسع دائرة الأماني، فلما جاء جواب دعوته رزقه الله بولد وليس ولدًا عاديًا بل نبيًا، ويعطى النبوة وهو صغير، ولم يسم باسمه أحد قبله، حتى أن سيدنا زكريا لم يقع في حيرة اختيار اسم له فقد اختار له الله يحيى اِسمًا.

وأما عن زوجته فلم يفوتها نصيبها من الفرج فأصلح الله له زوجته من أجل دعائه ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ ﴾، أرأيت كيف للدُعاء أن يُغير مقادير الحياة يجعل من امرأة فقدت الأمل في أن تَلد تنجب نبيًا، وشيخًا وهن عظمه واشتعل رأسه شيبًا صار أبًا بعد السبعين.

فإذا كانت لك عند الله حاجة وغلب الشيطان على تفكيرك أنها

مُستحيلة ضع يدك على قلبك وردد ﴿ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّن وَقَد خَلَقتُكَ مِن قَبلُ وَلَم تَكُ شَيئا ﴾.

* منك تعلمت *

مِنك تَعلمت أن الأماني قد تتأخر لا يعني ذلك بالضرورة أنها لن تأتي، فقد تتأخر لتعرف كم هو جميل طعم الإجابة، وتتأخر لمكانة أراد الله أن يرفعك لها، وتتأخر لذنبٍ أنت عليه مقيم فيريد الله أن تعطيه ليعطيك، وأن تبذل من أجله ليستجيب من أجلك.

مِنك تَعلمت أن الليالي الموحشة سوف تذهب عاجلا أم آجلا، وأن الأيام المعسرة حتمًا ستنقضي، البلاء لا يدوم والوجع لا يطول، فكن راضيًا ببلائك، قانعًا بأوجاعك.

مِنك تَعلمت أن الله يرسل بعض الأشخاص إلينا على هيئة تعزية، ويرسل أشخاصا محملين برسائل أمل من الله ألا نبتئس ولا نيأس، كانت مريم رسالة أملك لتقول لك إن تداعت أسبابك فربك موجود.

مِنك تَعلمت أن الصلاة طبيب لكل مرضٍ، وعلاج لكل داء، ما إن توضأت وأسرعت إلى صلاتك حتى جاءتكَ البشرى تزفها الملائكة.

مِنك تَعلمت أن بالدعاء كل شيء ممكن وباليقين كل حُلم يُصبح واقعًا.

مِنك تَعلمت أن إجابة دعوتي إن تأخرت فإن الله يُعد لي في الغيب أمورًا لو علمتها لبكيت فرحًا، كنت تطلب ولدًا فأصلح الله لك زوجتك ورزقك الله بولد وسماه من أجلك يحيى وجعله الله سيدًا نبيًا.

أشكُو إِلَيكَ ضَعف قُوّتي

الوحدة أصعب ما يُصاب به بشر، شُعُور أن تُحرك يدك فلا تجد أحدًا بجوارك، كأنّك تُقاتل جيشًا بأكمله وحيدًا وأنت أعزل من سلاحك، تبحث عن صديق تشكُّو له جُرحك، أو حبيبًا تستند إليه في وقت شِدّتك فلا تجد، لتستفيق للحقيقة التي ليس منها فرار، أنّ اللهَ بجوارك إن تخلّى عنك صديق أو فارقك حبيب، الجميع يرحل واللهُ باق.

فهكذا كان الحال مع حبيبك ورسُولك المصطفى ﷺ، خرج إلى هذه الدُّنيا وحيدًا، مات والده وهُو ما زال في بطن أُمّه، وأُمّه لحقت بوالده قبل أن يُكمل السّت سنوات من عُمره.

حتّى حينما وجد كتفًا يستند عليه، زوجته الحنون وعمّه الذي عوضه مكان الأَب، سُرعان ما أصبحوا تحت الثّرى، كان أحبّ الخلق لربّه، ورغم ذلك كان أكثرهم بلاءً.

أرأيت كُلّ التّجارب الماضية التي مرّ بها الأَنبياء، يعقُوب حُرم من ولده، وأيُّوب صبر على مرضه، ويُونس عانى من ظُلُماتِ حبسه، لا أُبالغ إِن قُلت إن النّبيّ ﷺ قد ابتلي بكُلّ هذه الأنواع من الابتلاءات.

أرأيت حينما تشتدّ عليك الأَزمات، وتضيّقُ بك الطُّرُق سُرعان ما تتّجهُ لربّك، تُهرول إلى المسجد وتُنادي وتقُول يا رب قلبي.

كان المصطفى ﷺ مُلازمًا للدُّعاء، ما كان يعرفُ وجهةً إلّا ربّه، ولا طريقًا إلّا للّه، جعل من الدُّعاء صديقًا لا يُفارقهُ، كُلّما ضاقَ صدره سجد في الأَرضِ ونادى يا رب.

فالقُلوب لا تهونُ على خالقها يا فتى، يعلم اللَّه ما بها من كسر وخذلانٍ، يجبرها بنظرة تشفّي تلك الجُروح الّتي لا تراها العُيُونُ، فجروحُ الرُّوح مُؤلمة رغم أنّها بلا دم ومُوجعة رغم أنّها بلا جرح.

فداوي قلبك بالدُّعاء وطبّب جرحك بالسُّجُود، لا يشغلكَ هم وأنت في حضرة ربك، ولا وجع وأنت تحت رعايته، ولا تعب وهُو من يتولّى عنايتك.

فأغمض عينيك وأرح عقلك من التّفكير ولا تشغل قلبك الضّعيف بغيبٍ قد تولّى اللَّه تدبيره، ولا تظنّ لوهلة أنّ اللَّه تخلّى عنك أو تركك فبئس العبد من ظنّ أنّ اللَّه تاركه.

فإنّ شعرت ببعض الخوف فلا بأس، فالخوف من صفات البشر، أمر لا قُدرة لنا على التّحكّم فيه أو السّيطرة عليه، لكن نحن نغلّبُ خوفنا بإيماننا، نضع أيدينا على قُلوبنا ونقُولُ لها لا تخافي فاللَّه معنا.

لقد تعلّمت في طُفُولتي أنّ الوحي حينما تأخّر على رسُول الله لأيّام وأيّام، حتى قال المُشركُون إنّ ربّ مُحمّد قلاهُ فأنزل الله ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ ، فكُلّما شعرتُ ببعض الخوف وأخذ الشّيطان يتسلّل إلى أفكاري في مُحاولةٍ لأن أميل عن الدُّعاء، أو اُحدث نفسيّ أنّ الله تخلّى عنّي، أضع يدي على قلبي وأقُول ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾.

أحببتُ أن أصطحبك في جولةٍ عن رسُول الله ﷺ وكيف كان دائم اللُّجُوء إلى ربّه، ولكن ما إن بدأت الكتابة حتّى أصابتني الحيرة فمن أين أبدأ، هل بمواقف البلاء على كثرتها، أو بمواطن الدُّعاء على روّعتها.

حتّى شعرت أنّهُ رُبّما ليس من الأدب أن أحصر مواقف دُعائه ﷺ في مجمُوعةٍ من الصفحات، وهُنا قرّرت التّوقّف!

وأسرعَت إلى صفحة الخاتمة وطيّ الكتاب حتّى أنهي رحلتي، فما إنّ وضعت قلمي إلّا وثار عليّ كثائر في ميدان يُطالب بالحرّيّة، يقُول لي أمّا تستحي أن يُصيبك الفُتور وأنت على باب رسُول اَللَّه، وتحرمني من شرف أن أُسجّل بعض كلمات عنه، أما علمت أنّه لا يُعد القلم قلما إلّا حينما يكتُب عنه، ولا يُسمّي الإنسان نفسُه كاتبًا ومؤلّفًا دُون أن يُسجّل ولو خاطرة عن رسُول اَللَّه ﷺ ، فعدّت مُمسكا قلمي الذي كان أشدّ عقلانيّة مني.

لأسجّل بعضا من المواقف التي لجأ فيها النبي ﷺ لربه لتعلّم أنّ المتعلّقين بباب الله كُثر وكان أبرزهم المصطفى ﷺ، فها نحن نعبر بجانب مكّة حيث بدأ النبي ﷺ رسالته ودعوته لربه.

سترى أنّ ما من بلاء نزل على رسُول الله ﷺ إلّا وشرع في الدُّعاء لربه، ليرتمي بكلماته على باب الله، يلُوذ دائمًا بالفرار إلى ربّه ومولاه فبعد فقد الزَّوجة التي كان يشكو لها وجعه ليلا وعمّه الذي كان يقص له ما يُلاقيه نهارًا.

في عام واحد ذهبت الزّوجة ومات العم، بعد حصار دام لأكثر من ثلاث سنوات في شعب أبي طالب، سنوات كانت كفيلة بمحو أيّ ذرّة لأمل في قلب أيّ بشر، جاع خلالها النبي لأيّام وأيام، أكل فيها ورق الشّجر، لم يخطر لذهنه يومًا أنّ الله تخلّى عنه أو أنّ ربّه قلاه، كان يقينه أقوى من أن يهزمه بلاء، وثقته بربه أشدّ من أن تعصف بها الأيّام.

سجن كان أشدّ من سجن يُوسُف، وكرب كان أشدّ من كرب يُونُس، صحيفة جائرة، كتبت فيها أظلم مُعاهدة في تاريخ البشريّة، كان الغرض منها أن يهلك بنُو عبد المُطلب، لم يقترفوا ذنبًا ولم يفعلوا جريمة.

علقت صحيفتهم في سقف الكعبة، لتمر سنة تعقُبها سنة، فأرسل الله عليها الأرضة فأكلتْ كُلّ ما فيها من ظُلم وجُور، إلّا ذكر الله سُبحانه،

فكان للأرضة قلب أرحم من كُفّار قُريش، فثارت من أجل المسجونين بلا ذنب والمحكوم عليهم دُون تُهمة.

سنوات كانت تمر ثقال على رسُول الله ﷺ، لم يكد يستفيق من خُروجه من شعب أبي طالب حتّى جاء عليه عام كإعصار يأكُل الأخضر واليابس، عام حُزنه ﷺ فِيه ماتت زوجته وعمّه، ضاقت عليه الأرض بما رحبت، لم يكن له في الأرض عزاء، حتّى جاء له عزاؤه من السّماء، كان يسب ويضرب ويُؤذى، حتّى جاءت رحلة الإسراء والمعراج، فكانت تعزية من أهل السّماء لرسول الله ﷺ عمّا بدر من أهل الأرض.

يحدث أن تضيّق بك الدّروب وتسود في نظرك الدُّنيا، وتصبِح الأيّام قاتمة، والأجواء من حولك كئيبة والهواء يُصبِح ساكنًا من حولك بالكاد تَتَنفّس، ثُمّ يأتي فرج من الله على هيئة إجابة لدعوة كُنت تهمس بها بليل.

وبرغم الإيذاء الذي كان يتعرّض له ﷺ ليلا ونهارًا كان شُغلُه الشّاغل أن يدعُو لدين ربه، لم يرفع يده نحو ربّه أن ينزل عقابًا على قومه، بل كان لسانه دائمًا ما يُنادي " اللهمّ اِغفر لِقومي فإنّهم لا يعلمون "، كان بِإشارة من يده قادر أن يمحو الله من أجله كُلّ أشكال الكُفر، ولكن كانت رحمته أقوى من الدّم الذي يقطُر من جسده.

البلاء مُتعب للجسد يا فتى مُرهق للبدن ولكن وراءه نجاحات

وفرج مهول ، كان صبر النبي ﷺ مفتاحًا لإسلام الملايين ، فمهما طال عليك أمد البلاء لا تجزع ولا تشتكي ولا تُؤذ قلبك بحزن يجعله كهلا فرفقًا يا فتى بقلبكَ فالأيّام دُول، من المُستحيلِ أن تدُوم عليك تعاسةُ الأيّام ، ودوام الحالِ من المحال.

فسلامًا لقلب صبر ورضي، ولم يفقد يقينه بربه رغم تشتّت أمانيه، وضياع أحلامه، ورغم ذلك ظلّ صامدًا يُحدث نفسه، أنَّ جميع الطُّرق مُمهدة إذا كان الله معه، وكُل الأحلام مُمكنة إذا كان الله بجواره،

فمهما ابتعد عنك حُلمك، فالله قادر على أن يأتيك به، فوالذي نفسي بيده لو كانت أمانيك في قيعان البحار، أو أعالي الجبال أو كمثقال حبّة من خردل في السَّموات أو في الأرضِ يأتي بها الله،

فإن شعرت أن دعوتك تبتعد عنك، وأمانيك صارت أبعد من أن تنالها يدُك وبدأ الفُتور يُصيبك والأمل بدأ يتناقص، اقبض بيمينك على قلبك وردد " يأتي بها الله ".

كانت الأذية تأتي لرسول الله ﷺ من أقرب النّاس إليه، فمن ينسى حِينما صَعد إلى جبل الصّفا ونادى في القبائل أنّ الله قد بعثه نبيًا، فكان الرّد من آخر شخص توقعه عقله فقام عمّه أبو لهب وقال: " تبًّا لكَ سائر اليوم، ألهذا جمعتنا"، أعلم كم هو مؤلم أن تُصاب بِالخذلان ممّن

أعطيتّهم قلبك، وتطعن ممّن وليتَ لهم ظَهرك، ولكنها سنة الله يُداوي خلقه بِالبلاء، ويُهذّبهم بالمحن، يُسقط الله بالبلاء من حولك الأقنعة المزّيفة، حتّى لا يبقى حولك سواه، فكما أنّ الحبيب يَغار على قلب حبيبه، فإن الله يغار على قلب عبده أن يُوجد به أحد سواه.

وتعلّم أنّ أشدّ الطّعنات ألما حينما تأتي من أقرب النّاس إليك، فالمحن تأتي لتزيل الغُبار من حولنا، وتُعيد تنظيم الصّفوف كما يُرتب قائد الجيش صفُوف جُنوده، فالبلاء يُربكنا، ولكن اعلم أنّك الرّابح الوحيد من هذه التّجربة والمنتصر الوحيد في تلك الحرب، جرّب أن تجلس مع شخص كان مُبتلى واجعله يُحدثك عن بَلائه سيقُول لك كم كُنت غبيًّا حينما فكرت للحظات أنّ الله أراد بي شرًّا.

لم يكن للنّبي ﷺ سند إلّا ربه ولا مُعين إلّا الله ، فإذا اشتدّ عليه إيذاء قومه فزع إلى ربّه يشكو له ما يمُر به ، ويدعو بلسان منكسر أن يا رب ليس لي إلا أنت ، ففي وسط معركةِ أُحد ، وبعد أن دَارت رحا الحربِ ، واحتدم القتالُ ، وحُوصر النّبي ﷺ من المشركين حتّى تلقّى العديد من الضّربات ، فشجّت رأسهُ وكُسرت رُباعِيّتهُ وأخذ الدّم يسيل من وُجهه الشريف، حتّى قال النبي ﷺ " كيف يُفلح قوم شجّوا نبيّهم وكسروا رُباعيّته " ، وبعد اِنتهاء القتال أخذت السّيّدة فاطمة تطبّب وجه رَسُول الله ﷺ ، وتضمّد جراحه ، وتغسل الدّم عن وُجهه الشرِيف ، فلمّا اِنتهت

لجأ النبي ﷺ إلى ربّه لِيقول " اللّهمّ اِغفر لِقومي فإنّهم لا يعلمون ".

في أحلك الظُّروف لجأ إلى ربّه، لم يطلب أن ينزل اللهَّ على قومه عذابًا، كان دمُه يقطُر ورغم ذلك كانت رحمته قد غلبت وجعه، كان يقين النبي ﷺ رغم مرارة الأيّام أنّ جُهُوده لن تذهب سُدى، وأنّ الأيّام الجميلة سيأتي دورُها، وأنّ كُلّ شيء بِالدُّعاء آت، فالدُّروب الطَّويلة بِالدُّعاء ستقصر، والآمال البعيدة ستقترب، فرُبما نعجز نحن ولكن اللهَّ قادر.

كانت دعوات النبي ﷺ لقومه بِالهداية، وهمساته لربه سببًا في إِسلامهم، فلا يُزعجك ضجيج الحياة، ولا مرارة الأيّام ولا خُلُو سمائك من النُّجوم وغياب قمرك، كُلُّ ذلك سَيمُر، وحتمًا ستأتي لحظات الاستجابة، تلك اللّحظة التي تسجُد فيها باكيًا، وتقُول بِنبرة صوتك المليء بِالدُّموع التي تعكس مشاعر فرحتك، ما فقدت يومًا الثقة فيك يا رب.

كان البلاء يُحاوط النبي ﷺ لقوّة إِيمانه وشدّت عزمه، فاللهَّ يزيد البلاء على عبده كُلما رأى فيه قُوّة لا تُوجد في غيره، وعزيمة لا تتوفّر إلّا فيه، فعن مُصعّب بن سعد بن أبي وقّاص عن أبيه قال: قُلت يا رسُول اللهَّ أي النّاس أشدّ بلاء؟

قال: الأنبياء، ثُمّ الأمثل فالأمثل، يبتلى الرّجل على حسب دينه ".

يأتي البلاء ليحرّرك من سجن الخطيئة، فما يبرحِ البلاء بالعبد حتّى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة، فعن أَبي هُريرة قال: قال رسُول الله ﷺ: " ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتّى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة ".

فالحزن الذي يملأ قلبك الآن أرسله الله ليوقظك، ليؤدّبك ببلائه، ويهذّبك بمنعه، لذلك ستمُر عليك أيّام ستنفجر فيها من البُكاء، سيأكل الحُزن قلبك بِصمت، ستحدث نفسك أنّ هذه الأيّام هي بمثابة ملك الموت جاء لِيقبض رُوحك، وأنّها ستودي بك عاجلا أم آجلا، ولن تمر عليك دُون أن تجعل منك جُثّة هامدة، لكن ثمّة نداء بداخلك يقولك لك اِهدأ ستمر وإِن طالت، وستفرج وإِن ضاقت، فالحمد لِلّه على بلاء يُهذبنا، وحُزن يُربينا ويعيدنا إِليه.

لقد نزل جميع أنواع البلاء على رسُول الله ﷺ المرض، الحرمان، مُغادرة بلدته التي نشأ بها، فإن حدّثتك نفسك أنّ البلاء نقمة ، فتذكّر كمّ عانى نبيّك ، لقد مرّ بكلّ التّجارب القاسية التي عاينها أقرانه من الأنبياء ، الأذى الذي تعرّض له نُوح ، فكان النبي ﷺ يسب ويُؤذى من أشدّ النّاس قُربًا له، والأعراض الذي عاناه إِبراهيم من أبيه، عانى النبي ﷺ أشدّ منه مع عمّه أبُو لهب، والحرمان من الولد الذي اُبتُلي به يعقُوب، غير أنّ المفارقة الوحيدة أنّ يعقُوب ردّ إِليه يُوسُف في نهاية

المطاف، وخروج مُوسى من مصر مُطاردا مخافة سُيُوف فِرعون، فقد خرج النبي ﷺ مُطاردا من مكّة يترقّب الرّصد من حوله، وغيابات جُب يُوسُف، فقد لبث أيّام تحوطه جُدران غارٍ مُوحش في صَحراء لا مُؤنس له إِلّا ربّه وصديقه الأقرب إِلى قلبه.

ومرض أيُّوب فكان النبي ﷺ إِذا مرض توعّك كما يتوعّك الرّجلان من أُمّته.

فعن ابن مسعُود قال: دخلت على النبي وهو يُوعك، فقُلت: يَا رسُول اللَّه، إِنّك توعّك وعكّا شديدًا،

قال: أَجل ، إنّي أُوعّك كما يُوعك رجلان منكم

قلّت : ذلك أنّ لك أجرين ؟

قال : أَجل ، ذلك كذلك ، ما من مُسلم يُصيبه أذى ، شوكة فما فوقها إِلّا كفر اللَّه بها سيّئاته ، وحطّت عنه ذُنوبه كما تحط الشّجرة ورقها .

رغم كُلِّ تلك الأجواء المظلمة والعتمة من حوله كان يقينه أنّ كُلّ ذلك خيّر، فحين تنطفئ الكهرباء من حولنا، وينتشر الظّلام نُحدّث أنفُسنا أنّه رُبما بعد ساعات ويعُود التّيّار من جديد، نملك يقينًا أنّه مهما كانت المشكلة سيتكفّل عُمّال محطّة الطّاقة بِإصلاحهَا، نحن نزرع يقينًا على بشر مُستندين على مجمُوعة من الأسباب لا أكثر مُعرضة للانهيار،

فكيف يكُون يقيننا باللَّه سُبحانه ؟

لذلك تذكر دائمًا أنّ كُلّ مُنعطف في حياتك ما هُو إلّا توجيهًا للطّريق الصحيح، تأتي أقدار اللّه لترحمك من شرٍّ لا تراه وتبعدك عما قد يُدمّرك ويأخذ من نفْسيّتك. فحدث نفسك أنّ كُلّ ما تمر به خير!

قل لنفسك حينما تُحرم من شيء تُحبّه لعلّه خير،

قل لنفسك إِن أصابك همّ وألم وحُزن لعلّه خير،

قل لنفسك خلف كُل فقد ووراء كُلِّ حرمان لعلّه خير،

قل لنفسك وراء كُلّ تلك الضّربات الموجعة والخسارات الفادحة لعلّه خيّر، فلا تستعجل فرجًا ولا تستأخر دعوة، كُن على يقين أنَّ وراء الحرمان عطاء، ووراء الألم شفاء، وخلف الهم بهجة، ووراء الهزائم المروّعة اِنتصارات رائعة، اِصبر فربك أرحم من أن يتركك وأقدار اللَّه أحن من أن تسبّب لك حُزنًا يُرهقك، سيأتيك من الفرج والفرح ما يُنسيك مرارة الأيّام.

ستجد الكثير من المواقف الصّعبة التي مرّ بها النبي ﷺ في حياته، هُددت حياته وحوصرت مدينته لأيّام وأيام، وتعرّض للغدر والطّعن ممّن أظهروا له الود والوفاء، اِبتلاء يعقبه اِبتلاء لم يجزع ولم ينكسر ولم تظهر عليه علامات سُخط على واقعه ولا نقمة على حياته، بل ما أظهر

إلّا ثباتًا وثقة عالية بربه، كانُوا يُحدّثونه عن ضِيق الحال فيحدّثهم عن سعت رحمه اللَّه.

كانُوا يُحدّثونه عن ذُنوبهم وخطاياهم فيحدّثهم عن عظيم مغفرته وجميل توبته.

كانُوا يُحدّثونه عن سُوء أحوالهم وصعُوبة المعيشة فيحدّثهم عن خزائن رزقه سُبحانه وكريم عطائه.

كانُوا يُحدّثونه عن المستحيلات فيحدّثهم عن الدُّعاء.

كان يزرع الأمل في جميع من حوله ويقتلع اليأس من جُذوره من قُلوبهم، فمن ينسى حينما حاصر المشركون المدينة لأكثر من شهر فقد اِجتمعت عُصبة من الشّر تُريد القضاء على مقرّ الإسلام في المدينة أكثر من عشرة آلاف مُقاتل لم يمنعهم من دُخُول المدينة سوى خندق قد اِجتهد الصّحابة بكلّ ما أُوتُوا من قُوّة في حفره.

كان النبي ﷺ على رأس الصحابة يحمل الحجر، وينقل التُّراب حتّى أغبر بطنه وهو يُردّد داعيًا ربّه أن ينصُره ويقول:

والله لولا اللَّه ما اِهتدينا ولا تصدقنا ولا صلّينا

فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

إنَّ الأُلى قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أَبينا

أَنت لا تَحتاج مع اللَّه أن تُلبس كلماتك ثوبًا من أَثواب البلاغة، ولا أن تجعل من دُعائك أبياتًا من الشّعر مُنظمة ومرتبة، أن تحتاج فقط أن تذهب إليه حاملا كُلّ تفصيلة قد أوجعتك، وكل طعنة أوقعتك، نادي يا رب أَنت أَكرم من أن ترُد تائبا وأجّل من أن تطرُد عاصيًا، أَسألك نجدة لقلب مُتخبط، وراحة لجسد مُنهك، وانتشالا لبدن غرق في بحر الأوجاعِ فلا هو وجد من يُنقذه ولا هُو هلك وسط أمواجه، أتيتك وأنت أملي وجئتك وأنت يقيني.

لم يجلس النبي ﷺ ليراقب أصحابه يقومون بالعمل الشّاقّ وهُو يستظل تحت شجرة أو يتناول بعضا من الماء البارد بل كان هُو الممسك بمعول حينما اِستعصت صخرة أمام أشدِّ الرّجال قُوّة من أصحابه، ليشمّر عن ساعده ويمسك المعول ومع كُلّ ضربة يُبشّر أصحابه بفتح من اللَّه.

كانت تِلك الغزوة من أشدّ اللّحظات خطرًا في حياة رسُول اَللَّه ﷺ، صعوبة الموقف أن يحشد من أجل القضاء عليه جيشًا يفوقه عدّة وعتادًا، ورغم ذلك لم ترتجف قُلُوب الصّحابة، لأنّهم كانُوا يعلمون أنّ الجنّة تحت ظلال السّيوف، ومع الدُّعاء لا قُوّة تستعصي على اللَّه، ولا جيشًا يقف أمام جُنده سُبحانه.

لأكثر من شهر كان الصّحابة يُردّدون دُعاء واحدًا اللّهمّ استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، أم النبي ﷺ فقد أَسرع على الفور في إرسال اِستغاثة نجدة لله سُبحانه فقال: " اللّهمّ منزل الكتاب سريع الحساب اِهزم الأحزاب، اللَّهمَّ اِهزِمهم وزلزلهم ".

لقد تعلمت من رسُول اللَّه ﷺ أنّه ما من عبدٍ أنزل حاجته ولا همّه ولا ألُمه على باب الله، إلّا أزال اللَّه همّه وأعطاه حاجته وجبر له الله قلبه.

لذلك كُنت دائمًا أُواسي نفسي قائلا إِن ظلمك بشر فاللَّه موجود، وإن خذلك حبيب فربّى يجبر القُلوب، أنا على يقين دائمًا أنّ أفضل وُجهة تِلك التي اِختارها اللَّه لي ، إِن أبكاني اليوم فهو يُخبّئ لي فرحًا يُنير لي قلبي ، وإِن حرمني أمرًا فإنما ليعطيني الأجمل ، وأن آخر عني دعوة ما زادني إلّا إِلحاحًا له وأنا أقُول لنفسي "لعلّ اللّيلة يقُول اللَّه لملائكته اِقضوا لِعبدي حاجته فقد ردّ دُعاؤه قدري ".

تمسّك النبي وأصحابه بالأمل والدُّعاء فلم يخذُلهم اللَّه، فنصرهم دُون أن يدخلوا في مُواجهة مُباشرة مع أعدائهم ليرسل اللَّه ريح تقتلع خيام العدوّ من جُذورها وجنود لا تراها العُيون ، فرد اللَّه الكافرين دُون أن تسفك قطرة دم واحدة وكفى اللَّه المؤمنين شرّ القتال .

وأنا أُسجّل تلك الكلمات جلست أُفكّر لماذا حُفر الخندق؟

ولماذا كل هذا العمل الشّاقّ طالما أنّ اللَّه سيتكفّل بالأحزاب ولن يُقحم بجيش المسلمين في معركة قد حسمت نتيجتهَا دُون قتال؟

فأدركت أنّ اللَّه لا يطلُب منك ضربًا من ضُرُوب المستحيل، هُو يُريد منك فعل السّبب والوصول لِأعلى قُدراتك وأقصى مبالغ قُوّتك، وبعد ذلك أترك الأمر إليه وهُو سبحانه سيتكفّل بترتيب الأُمور من أجلك، فلا تُشغل عقلك بِأمور قد تولَى اللَّه رِعايتها وتدبيرها من أَجلك.

فسلامًا على قُلُوب فوضت أَمرها لِلَّه وألقت بِأحمالها على بابه، وأَيقنت أنّ الخيّرة في اِختياره، والجميل في أقداره، فأدمنوا الدُّعاء، فمن أَدمن قرع باب اللَّه، يُوشك أن يفتح من أَجله.

عليك أن تُدرك أنّ في حياة كُلّ واحد منّا هُناك لقطات حُزن لا يُمكن للعقل نسيانها مهما اِجتهد في المحاولة، وأيام عجاف لم ترى العين فيها للأمل طريقًا ولا للنّجاة سبيلا، ثُمّ يُلهمك اللَّه دُعاء تستغيث به وتتمسّك بحباله، ليطوي به عنك حُزن الأيّام وينتشلك من غيابات الألم ويعوّضك عن جميع الخطوات التي ظننت أنها مُهدرة ، وأوقات السّعي التي ظنّ عقلك للحظات أنها خابت، لِتعلم أنّه لم يكن من باب المصادفة أن تُواجه تِلك العاصفة وأن تقف أمام تِلك الرّياح العاتية، فما أَلهمك دُعَاء إلّا لِيستجيب له وما علّق قلبك بأمنية إِلّا أَعطاك إِيّاها، فأكثر من الدُّعَاء فلا يهلك مع الدُّعاء أحد.

سأخبرك أَمرًا أَصعب معارك الإنسان حِينما يجد نفسه وحيدًا لا يستشعر أحدًا بجواره، يغمض عينه بليل ليس لِينام بل لأنه لم يجد من يُبادله أَطراف الحدِيث، والأصعب على القلب أن تقف في ميدان قِتال دُون سيف ولا دِرع تُقاتل وحيدًا أَمام جيش مُكتمل العُدة والعتاد.

لقد مرّت تِلك اللّحظات على رَسُول اللَّه ﷺ وقف وحيدًا أَمام قومه لم يكُن بجواره إلّا ربّه يُنجيه من مكائد أعداءه، كانُوا يتآمرون عليه في وضح النّهار، تفَنّنوا في إيذائه ومحاولة تضيّق الطُّرقات عليه في مُحاولة بائسة أن يثنوه عن دعوته لِلَّه، فما زاد ﷺ إلّا دُعاء لِربه مُسلما أقدراه لِلَّه تاركًا خوفه وقلقه على بابه.

كان إِذا حزبه أَمر فزع للدُّعاء، وبادر على الفور أن يهبط بِجبهته على الأرض ، كان يعلم ﷺ أنّه إن ضاقت الأُمور عليه في الأرض فقد اِتسعت من أجله في السَّماء، حتّى حِينما جلس ليصلّي في الكعبة على عادته وأخذ الكُفار يتهامسون من حوله، ليصطنعوا بعضًا من الاعيبهم ، فقام أَبو جهل وقال من يأتي بسلا جذور بني فُلان فيضعه على ظهره مُحمّد إِذا سجد.

فقام أَشقى القوم وأسرع لِيأتي بسلا الجزور ليضعه على أَشرف جسد عرفه الكون، وظلّ النبي ﷺ ساجدًا لا أحد يُزيل تِلك القاذورات عن جسده حتّى جاءت السّيدة فاطمة لتطرحه عن جسد والدها.

فلمّا قضى النبي ﷺ صلاته، توجّه إلى ربّه قائلا اللّهمّ عليك بقريش وأخذ يُسمّي كُلّ من كان سببًا في إيذائه والتّآمر عليه، ورفع بدعائه صوته حتّى دبّ الرُّعب في قُلوبهم وأسكتهم دُعاء رَسُول اللَّه ﷺ، يَقُول سَيدُنا ابْن مَسعُود لَقد رأيْتُ الَّذين سَمَّى صَرعَى يَوْم بَدْر ثُمَّ سَحبُوا إلى اَلقُليب قُلَيب بَدْر ".

لن تجد في هذه الدُّنيا أشدّ عقابًا من أن يسمع ظالم دعوات مظلُوم وأنينه لربه وهو يشكو له عبدًا من عبيده، سيشعر أنّ دُعاءه نزل على مسامعه كأنّما صاعقة نزلت على الأرض، فاحذّر أن يشكُوك أحد إلى اللَّه.

سأخبرك أمرًا بَعض الأسئلة التي تُطرح على الأذن تكُون بمثابة خِنجر يُعطيك إيّاه أَحدهم ثُمّ يطلُب منك أن تفتح به جُرحًا قديمًا عفا عليه الزّمان، سيمُر عليك شريط ذكرياتك بما فيه من أَوجاع ستتمنّى حينها لو فقدت الذّاكرة أو كان باستطاعتكَ اِقتلاع ذلك الجزء من عقلك.

وأنا أَكتب تلك الصّفحات لا أدري لما تذكّرت حينما سألت السّيدة عائشة رسُول اللَّه ﷺ، هل مرّ عليكَ يوم أشدّ من أُحدٍ؟

لم تكن تتخيّل السّيدة عائشة أنّ يومًا في حياة النبي ﷺ أشدّ وقعًا

على قلبه من يوم أُحد، يوم قُتل فيه عمّه وهزم المسلمون، بل وأُشيع في الميدان أنّ رسُول الله ﷺ قد قُتل.

فكأن النّبي ﷺ تذكّر كُلّ الأيّام الشّدائد التي مرّ بها وجميع ألوان المعاناة التي لاقاها، فرد بكلمات لا يقرأها أحد إِلّا اِستشعر منها حُزنًا لا تسعه الدُّنيا بأكملها فقال:

" لقد لقيت من قومي ما لقيت "، وكان أشدُّ ما لقيت منهم يوم العقبة، حِينما ذهب إِلى الطّائف لِيعرض دعوته على زُعماء ثقيف، فما وجد مِنهم إِلّا الجُحود والنّكران.

لم يقف الحد هُنا بل أَغروا به عبيدهم فرمُوه بِالحجارة حتّى دمى كعبه، فخرج من الطّائف عائدًا إِلى مكّة بجراح غائرة وأقدام سال منها الدّم، هائمًا قد غلبه الغم وصعُوبة الهم فلم يكد يستفيق إِلّا بقرن الثّعالب، لِيأوي إِلى حائط عُتبة وشيبة، ثم لجأ لظلّ شجرة ليدعوا ربّه رافعًا كفّيه إِلى السّماء ينادي بلسان مظلُوم تداعت عليه الأيّام ، قائلا: " اللّهُمّ إِلَيك أَشكُو ضَعفَ قُوّتي ، وَقلّة حِيلتي ، وَهواني على النّاس، يا أَرحم الرّاحِمين ! أَنت ربّ المستضعفينَ وأنتَ ربّي ، إِلَى مَن تكلُني ؟ إِلَى بَعيد يتجهّمُني ؟ أَم إِلَى عدُوّ ملّكتهُ أَمري ؟ إن لم يكُن بك عليّ غضب فلا أُبالي ، وَلكنّ عافيتك هيَ أَوسعُ لي ، أَعُوذُ بنُور وَجهك الّذي أَشرقت لهُ الظّلُماتُ وَصلُح عَليه أَمرُ الدّنيا وَالآخرة من أَن تُنزل بي غضبك ، أَو

يحلّ عليّ سخطُكَ، لك العُتبى حتّى تَرضى ، ولا حَول ولا قُوّة إلّا بك".

لن تجد أحدًا يُرحّب بك في لحظات ضعفك قبل لحظات قُوّتك غير ربّك ، ولن تجد أحدًا يقبل سماع شكواك خمس مرّات في اليوم دُون ملل غير اَللَّه ، ولن تجد أحدًا يُلبّي نِدائك ويقُول لك لَبيك يا عبدي غيره سُبحانه ، إن كُنت حزينًا ستجد عِنده دواء لِحزنك ، وإن كُنت مريضًا فلن تجد شِفاء إلّا لديه ، وَإن كُنت مُبتلى فلن تجد فرجًا إلَّا على بابه ، فلا تُعطلك الأيّام عن الذّهاب إليه ، ولَا يمنعك الدّم السّائل من قدميك عن السّير في طريقه ، كُن عبدًا ربانيا كُلما ضاقت بك الدُّنيا قلت يا رب ، فهناك أَوقات تأتي فيها الإجابة مُسرعة وكأنها مُكافأة جاءت لك من عند الله ليقول لك لا تخف أنا بجوارك ولا تقلق ما دُمت معك، وتزيل تلك الدُّموع التي جرحت خدّك، وتُطفئ شمعة حُزنك.

فلما كاد النبي ﷺ ينتهي من دُعائه حتّى رآه ابنا ربيعة، وشاهدوا ما لاقاه وعاينوا آثار الدّم على جسده حتّى دعوا غُلاما لهم يُسمّى عدّاس ليأخذ قطفًا من العنب إلى رَسُول الله ﷺ ، فلما وضع الطَّبق بين يدي النبي ﷺ ومدّ النبي ﷺ يده قائلا بِسم الله فنظر الغُلام نظرة اندهاش وامتَلأ وجهُه بالأسئلة ، فقال والله ما إنّ هذا الكلام لا يقوله أَهل هذه البلاد !

فتبسّم النبي ﷺ وقال من أيّ البلاد أَنت يا عدّاس؟

قال أنا نصرانيٌّ من نينوى، فقال النبي ﷺ من قرية الرّجل الصّالح يُونُس بن متّى ؟

قال عدّاس وما يُدريك ما يُونُس! قال هُو نبي وأنا نبي، فأكب عدّاس يُقبل يد النبي ﷺ ورأسه وقدميه.

يحدُث أن يُرسل اللَّه لك أشخاصًا في وقت ضعفك، وأفئدة في وقت اِنكسارك، لا تعلم من أَين أتوا، لكن ما تعلمه وما تُدركه جيّدًا أَنهم جاءُوا من أَجلِك، وما تحركت أقدّامهم نحوك إِلَّا حينما أَراد ربّك أن يُعوضك عن زَيف أَشخاص اِدعو محبّتك، فتلك الأقدام التي أُدميت، كانت نفسها التي أكبَّ عليها عدّاس يُقبلها.

اِنطلق النبي ﷺ عائدًا إِلى مكّة فإذا بسحابة تُظلُّه فيها سيدُنا جِبريل فناداه يَا رَسُول اللَّه إِنّ اللَّهَ قد سمع قول قومك لك، وقد بعث إِليك ملك الجبال لِتأمره فسلّم ملك الجبال سلام الخادم الذي ينتظر إِشارة من سيده، قائلا: يا رَسُول اللَّه إن شِئتَ أن أُطبق عليهم الأخشبين لفعلتُ، فقال المصطفى ﷺ بل أَرجُو أن يخرج اللَّه من أصلابهم من يعبُد اللَّه وحده ولا يُشرك به شيئًا ”.

جميل أن تملك القُدرة على الانتقام والأَخذ بالثّأر ورغم ذلك تُفضّل العفو على القصاص، والصّفح على العقوبة، فالقويّ ليس بِشدّته ولكن

بِعفوه ورحمته، وليس عجيبًا على المصطفى ﷺ أن يعفُو ولا من الغريب عَليه أن يُسامح فقد صدق من سمّاه رؤوفًا رحيمًا".

* الخاتمة *

وكما هو الحال يا فتى فلابدّ أن يأتي يوم تُفارق فيه من عرفت، وتُغادرُ فيه من أحببت وها أنا أُفارقك وأُسلّم عليك سلام مُودع، أُوصيك بقلبك اعتني به واحفظهُ جيدًا، لا تدع الحُزن يتمكنُ منه ولا تجعل لليأس له طريقًا، والجأ لربك كُلما هزمتك المحن، ودمّرتك الحياة، كانت كلماتي مُواساة لك عن كُلّ حُزن، واعتذار لك عن كُلّ خذلان، ربّت بها على قلبي قبل أن أُربت بها على كتفك، فقد كُنت أشدّ اِحتياجًا لها مِنك.

وأُوصيك بحمد الله على كُلّ بلاءٍ ورضًا على كل مكروهٍ، وتذكر ما أصابك لم يكُن ليُخطئك وما أخطأك لم يكن ليُصيبك رفعت الأقلامُ وجفّت الصُحف، والسلام،